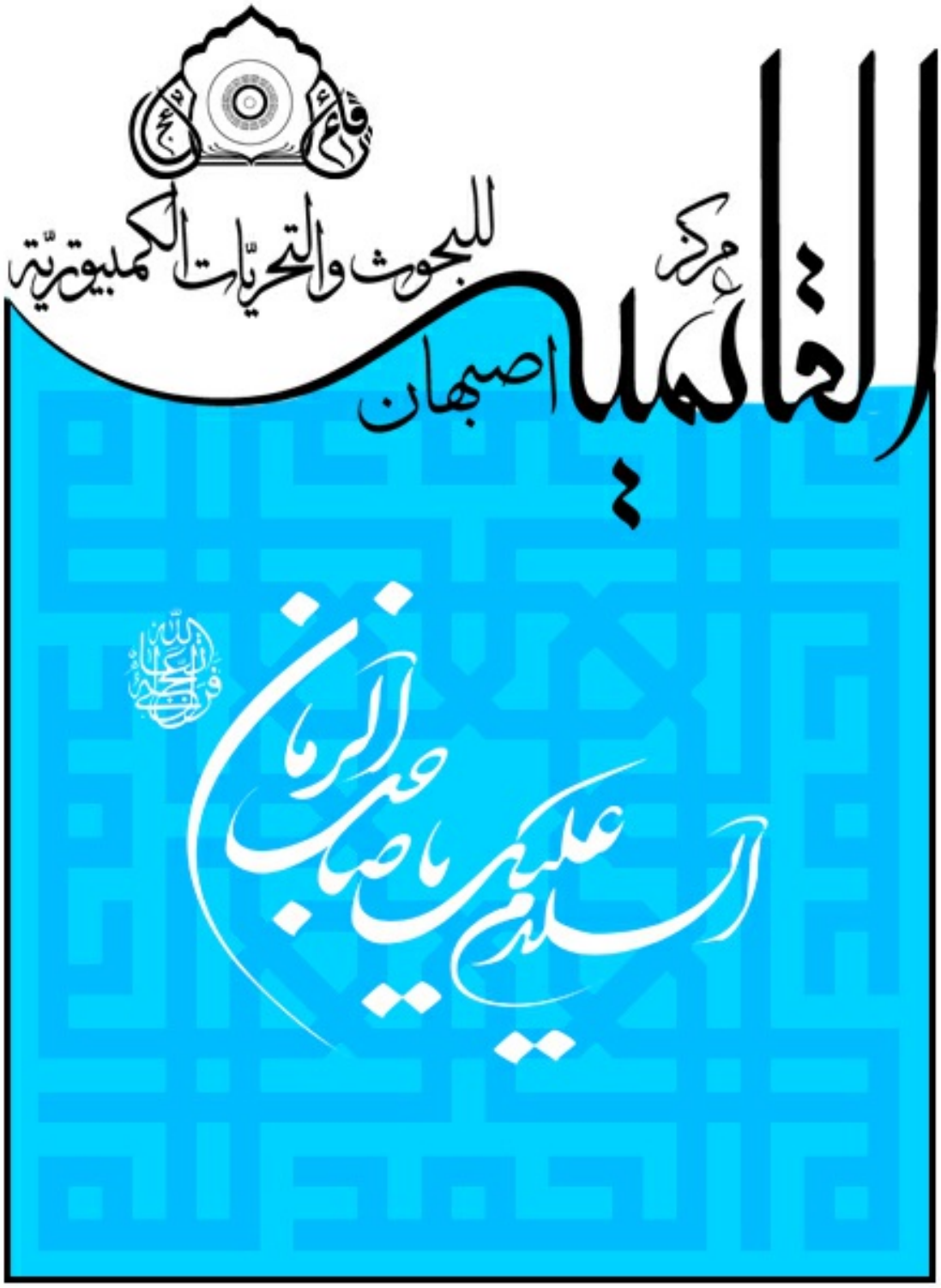

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

مفاهيم اسلامية برؤية حضارية

مسألة المهدي المنتظر

أ.د. محمد علي آذرشب

بسم الله الرحمن الرحیم

مساله المهدي المنتظر برويه حضاريه

كاتب:

محمدعلي آذرشب

نشرت في الطباعة:

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلاميه

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس 5

مسأله المهدي المنتظر برويه حضاريه 8

اشارة 8

اشارة 9

مقدمة 15

الفصل الأول: مناهج دراسة مسألة «المهدي» 17

اشارة 17

1 - دراسة المسألة علي مستوي السنة 20

2 - دراسة مسألة (المهدي) من وجهة النظر العقلية: 24

3 - دراسة مسألة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ 29

الفصل الثاني: نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ 33

اشارة 33

نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ 35

انتظار الفرج 36

نوعان من الانتظار 36

شخصية المجتمع وطبيعته 37

هذه نظرة 38

القرآن والتاريخ 39

تفسير تكامل التاريخ 41

طريقتان مختلفتان 41

الطريقة الديالكتيكية أو الآليّة 42

العنصر الأساسي 46

نتائج الاتجاه الآلي لتفسير التاريخ 51

1 – مفهوم القديم والجديد: 51
2 – التسلسل المنطقي للتاريخ: 52
3 – ذروة كل مرحلة: 53
4 – قدسية النضال: 54
5 – إثارة الفوضي: 54
6 – الإصلاحات: 55
الطريقة الانسانية أو الفطرية 55
نتائج الاتجاه الانساني أو الفطري لتفسير التاريخ 59
1 – المعارك الرابحة: 59
2 – حلقات التاريخ: 60
3 – قدسية النضال 61
4 – الإصلاحات: 61
5 – إثارة الفوضي 62
6 – تأرجح منحني التاريخ: 62
7 – التحرر من أغلال الطبيعة: 63
8 – ماهية الجهاد: 63
9 – أصالة القوي الفكرية والاخلاقية: 63
10 – المثلث الهيغلي: 64
نظريتان لتفسير الإنسان 65
التفسير القرآني 66
المجتمع المثالي 68
الانتظار الكبير 70
الانتظار المخرّب 71
تصور شبه ديالكتيكي 72
الانتظار البنّاء 73

الفصل الثالث: الامداد الغيبي في حياة البشرية 77
اشارة 77
الامداد الغيبي في حياة البشرية * 79
ماهو الغيب؟ 82
ستار الغيب 84
محدود وغير محدود 84
عالم الغيب 89
الإمداد الغيبي 90
انواع الإمداد 91
الفرق بين الفكر الإلهي والفكر المادي 95
الإلهام والإشراق 97
نتيجة 101
الإمداد الغيبي الاجتماعي 101
مسألة المهدي 102
مستقبل العالم 105
تعريف مركز 112

مسأله المهدي المنتظر برويه حضاريه

اشارة

سرشناسه:آذر شب، محمد علي، گردآورنده و مترجم

عنوان قراردادي:قيام و انقلاب مهدي در پرتو فلسفه تاريخ . برگزيده.عربي

امدادهاي غيبي در زندگي بشر. برگزيده.عربي

عنوان و نام پديدآور:مسأله "المهدي المنتظر" بروية حضاريه/ترجمه و تقديم محمد علي آذرشب

مشخصات نشر:تهران: المجمع العالي للتقريب بين المذاهب الاسلاميه، المعاونية الثقافيه، 1427ق = 2006م = 1385.

مشخصات ظاهري:104 ص

فروست:مفاهيم اسلاميه برويه حضاريه؛ 1

شابك:964-8889-62-7

وضعيت فهرست نويسي:فاپا

يادداشت:فصل دوم و سوم اين كتاب ترجمه و برگزيده كتب "قيام و انقلاب مهدي در پرتو فلسفه تاريخ" و " امدادهاي غيبي در زندگي بشر" اثر استاد مرتضي مطهري مي باشد.

يادداشت:كتابنامه به صورت زيرنويس

موضوع:محمد بن حسن (عج)، امام دوازدهم، 255ق. -

موضوع:مهدويت

شناسه افزوده:مطهري، مرتضي، 1298 - 1358. قيام و انقلاب مهدي در پرتو فلسفه تاريخ. برگزيده.عربي

شناسه افزوده:مطهري، مرتضي، 1298 - 1358.امدادهاي غيبي در زندگي بشر.برگزيده.عربي

شناسه افزوده:مجمع جهاني تقريب مذاهب اسلامي.معاونت فرهنگي

رده بندي كنگره:BP224/4/آ4م5

رده بندي ديويي:297/462

شماره كتابشناسي ملي:م85-21680

اشارة

مسأله "المهدي المنتظر" بروية حضاريه

ترجمه و تقديم محمد علي آذرشب

ص :3

ص :4

مقدمة

التطلّع إلي استئناف الحركة الحضارية الإسلامية يتطلّب أن ندرس تفاصيل المشروع الإسلامي برؤية حضارية.

ابتعادنا عن هذه الرؤية أوقعنا في نزاعات فقهية وكلامية وطائفية هي بعيدة كلّ البعد عن مقاصد الشريعة الإسلاميّة.

قضية المهدي المنتظر من القضايا التي صارت محلّ خلاف ونزاع ومراشقات لفظية بين هذا المذهب وذلك المذهب، بل وبين هذه الجماعة وتلك الجماعة من أبناء المذهب الواحد.. السبب في كل ذلك برأينا هو غياب الروح الحضارية في الدراسة.

المسألة ترتبط بأكثر الأمور إلحاحاً في الفكر البشري.. بمستقبل مسيرة الإنسانية.. هل البشرية تتجه نحو التكامل أم نحو السقوط والانتكاس؟ والجواب علي هذا السؤال ينعكس علي واقعنا العملي والنفسي، وعلي طريقة تفكيرنا ونظرتنا إلي الأمور.

قضية الغد الأفضل المنتظر هي أشدّ الأمور حساسيّة في الظروف العالميّة الراهنة، حيث تشهد الساحة انتكاسة فظيعة في القيم الانسانية،

وتراجعاً شديداً في صيانة كرامة الإنسان. وبدون إيمان غيبي بالغد الأفضل تبدو كل مكتسبات البشرية في نضالها الدامي الطويل من أجل حياة أفضل في مهبّ الريح ومهددة بالفناء، كما يصبح الحديث عن استئناف مسيرة الحضارة الإسلامية غير ذي جدوي إطلاقاً.

نحن إذن في قضية المهدي أمام مسألة مصيرية ترتبط بواقعنا ومستقبلنا.. بواقع القيم الحضارية الإنسانية ومستقبلها.

كثيرون هم الذين بحثوا عن قضية المهدي في النصوص والروايات، وكثيرون هم الذين دخلوا في مسائل كلامية نظريّة عن هذه القضيّة. غير أن الدراسات الحضارية لهذه المسألة قليلة، ولا نبالغ إن قلنا إن الأستاذ العلامة مرتضي مطهّري يأتي علي رأس من تناول المسألة من منظار حضاري.

من هنا ارتأي المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية أن يقدّم محاضرتين للأستاذ الشهيد مطهري في هذاالمجال بمناسبة الخامس عشر من شعبان الذي اقترن باسم الموعود المنتظر، آملين أن يكون بداية سلسلة نقدّم فيها المفاهيم الإسلامية برؤية حضارية تتعالي علي النظرات المذهبية والطائفية الضيقة.

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

1 شعبان 1427

الفصل الأول: مناهج دراسة مسألة «المهدي»

اشارة

ص:9

الإنسان موجود ينشـد الكمال فطرياً، وهكذا المجتمع الإنساني، وهذه حقيقة تؤكد عليها الشـرائع السـماوية والمدارس الفكرية والفلسـفية، أللهم إلا أصحاب الاتجاهات التشاؤمية، وقليل ماهم.

انطلاقاً من هذه الفطرة تطلعت البشرية دوماً إلي يوم موعود... يوم تحقق الآمال، وسيادة العدل، وزوال ألوان الظلم.

التطلع لمثل هذا اليوم شكّل ركناً من أركان الشرائع السماوية باعتبارها دين فطرة الله.

كما انعكس التطلع لهـذا اليوم الغيبي علي أشـدّ المـدارس الأرضـية رفضاً للغيب مثل الماديـة الجدلية التي آمنت بيوم موعود تزول فيه كل ألوان الصراع القائم علي ظهر الأرض، ويسود فيه الوئام والسلام.

مسألة «المهدي» في الإسلام تجسيد لهذا التطلع الفطري.

وهي إضافة إلي كونها عقيدة تلبي حاجة إيمانية فطرية في الإنسان

- ذات آثار عملية علي مسيرة المجموعة المسلمة.

- في مرحلة النضال من أجل استلام زمام أمور خلافتها في الأرض.

– وفي مرحلة تسلّم أعباء الأمانة الكبري وممارسة أمور الاستخلاف. ((1))

في هـذه المقدمة نسـتعرض الطرق التي سـلكها الباحثون في دراسة مسألة «المهدي» في الإسـلام لنتبين طريقة الأسـتاذ الشـهيد مطهري لدراسة المسألة في هذا الكتاب.

سلك الباحثون في مسألة المهدي ثلاث طرق:

1 – دراستها علي مستوي النصوص (المأثور من السنة إلي جانب بعض آيات القرآن الكريم).

2 – دراستها من وجهة النظر العقلية والعلمية.

3 – دراستها علي ضوء فلسفة التاريخ ومستقبل المسيرة البشرية.

1 – دراسة المسألة علي مستوي السنة

فكرة المهـدي بوصـفه القائـد المنتظر الـذي تتحقق علي يديه تطلعات البشـرية، وتطبيق الرسالة الإلهية بشـكلها الشامل الكامل وردت في أحاديث الرسول وفي أحاديث أئمة آل البيت، وبلغت كثرة الروايات في هذا الشأن حداً لا يمكن أن يرقي اليها الشك.

أحصي العلماء أربعمائة (400) حديث عن النبي (ص) في المهدي من طرق أهل السنة ((2)). كما أُحصيت أكثر من ستة آلاف (6000) رواية في المهدي من طرق الشيعة والسنة ((3)).

1– (1) – انظر دور الإيمان بالمهدي المنتظر في الفصل الثالث تحت عنوان «الإمداد الغيبي في حياة البشرية».

2– (2) – المهدي، سيد صدر الدين الصدر.

3– (3) – منتخب الأثر. لطف الله الصافي.

ولا نستطيع أن نجد مسألة إسلامية أخري وردت فيها هذه الكثرة من الأحاديث، حتي المسائل الإسلامية البديهية التي لايشك فيها مسلم عادة.

ثمة فتوي صدرت عن إدارة المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة بشأن «المهدي» هي خير معبر عن الموقف العام لعلماء أهل السنة بشأن النصوص الواردة في هذه المسألة.

حرّر الفتوي الشيخ محمد المنتصر الكتاني وأقرته اللجنة المكونة من الشيخ صالح بن عثيمين والشيخ أحمد محمد جمال والشيخ أحمد علي والشيخ عبدالله خياط.

وجاء في هذه الفتوي الصادرة عام 1976 م في تعريف المهدي:

«هو: محمد بن عبدالله الحسني العلوي الفاطمي المهدي الموعود المنتظر، موعد خروجه في آخر الزمان وهو من علامات الساعة الكبري، يخرج من المغرب ويبايع له في الحجاز في مكة المكرمة بين الركن والمقام بين باب الكعبة المشرفة والحجر الأسود عند الملتزم – .

ويظهر عند فساد الزمان وانتشار الكفر وظلم الناس ويملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، يحكم العالم كله وتخضع له الرقاب بالإقناع تارة وبالحرب أخري.

وسيملك الأرض سبع سنين، وينزل عيسي عليه السلام من بعده فيقتل الدجال أو ينزل معه فيساعده علي قتله بباب لدّ بأرض فلسطين.

وهو آخر الخلفاء الراشدين الاثني عشر الذين أخبر عنهم النبي صلوات الله وسلامه عليه في الصحاح. وأحاديث المهدي واردة عن الكثير

من الصحابة يرفعونها إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم. ومنهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبدالله، وعبدالرحمن بن عوف، وعبدالله بن عباس، وعمار بن ياسر، وعبدالله بن مسعود، وأبو سعيد الخدري. وثوبان، وقرة بن اياس المزني، وعبدالله بن الحارث بن جزء، وأبو هريرة، وحذيفة بن اليمان، وجابربن عبدالله، وأبو أمامة، وجابر بن ماجد الصدفي، وعبدالله بن عمر، وأنس ابن مالك، وعمران بن حصين، وأم سلمة.

هؤلاء عشرون منهم ممن وقفت عليهم وغيرهم كثير وهناك آثار عن الصحابة مصرحة بالمهدي من أقوالهم كثيرة جداً لها حكم الرفع إذ لا مجال للاجتهاد فيها.

أحاديث هؤلاء الصحابة التي رفعوها إلي النبي صلي الله عليه وسلم، والتي قالوها من أقوالهم اعتماداً علي ماقاله رسول الله صلوات الله وسلامه عليه رواها الكثير من دواوين الاسلام وأمهات الحديث النبوي من السنن والمعاجم والمسانيد.

منها: سنن أبي داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن عمرو الداني ومسانيد أحمد، وابن يعلي والبزار، وصحيح الحاكم، ومعاجم الطبراني، الكبير والوسيط، والروياني، والدار قطني في الافراد، وأبو نعيم في أخبار المهدي، والخطيب في تاريخ بغداد، وابن عساكر في تاريخ دمشق وغيرها.

وقد خص المهدي بالتأليف: أبو نعيم في أخبار المهدي وابن حجر الهيثمي في القول المختصر في علامات المهدي المنتظر، والشوكاني في

التوضـيح في تواتر ماجاء في المنتظر والـدجال والمسـيح، وادريس العراقي المغربي في تأليفه المهدي، وأبو العباس بن المؤمن المغربي في كتابه: الزعـم المكنون في الرد علي ابن خلدون.

وآخر من قرأت له عن المهدي بحثاً مستفيضاً مدير الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة في مجلة الجامعة في أكثر من عدد.

وقد نص علي أن أحاديث المهدي أنها متواترة جمع من الأعلام قديماً وحديثاً.

منهم: السـخاوي في فتـح المغيث، ومحمـدبن أحمد السـفاويني في شـرح العقيدة، وأبو الحسن الآبري في مناقب الشافعي، وابن تيمية في فتـاواه، والسـيوطي في الحـاوي، وادريس العراقي المغربي في تـأليف له عن المهـدي، والشوكـاني في التوضـيح في تواتر ماجاء في المنتظر والـدجال والمسـيح، ومحمـد بن جعفر الكتاني في نظم المتناثر في الحديث المتواتر، وأبو العباس ابن المؤمن المغربي في الوهم المكنون من كلام ابن خلدون رحمهم الله وحاول ابن خلدون في مقدمته أن يطعن في أحاديث المهدي محتجاً بحديث موضوع لا أصل له عند ابن ماجه: لا مهدي إلا عيسي.

ولكن ردّ عليه الأئمة والعلماء وأنه ليس من علماء الشريعة وأنه قال باطلا من القول وزوراً.

وخصه بالرد شيخنا ابن المؤمن بكتاب مطبوع متداول في الشرق والمغرب منذ أكثر من ثلاثين سنة.

ونص الحفاظ والمحدثون علي أن أحاديث المهدي فيها الصحيح

والحسن ومجموعها متواتر مقطوع بتواتره وصحته.

وأن الاعتقاد بخروج المهدي واجب وأنه من عقائد أهل السنة والجماعة ولا ينكره إلا جاهل بالسنة ومبتدع في العقيدة...».

أما النصوص الواردة بطرق مدرسة آل البيت فتنظر إلي المسألة ضمن دائرة أوسع وتذهب إلي:

أن (المهدي) هو الإمام الثاني عشر من أئمة آل البيت، وهو ابن الإمام الحسن العسكري، وهو غائب، وسيظهر في آخر الزمان ليملأ الارض قسطاً وعدلا كما مُلئت ظلماً وجوراً.

وجدير بالذكر أن فكرة الأئمة أو الخلفاء الأمراء الاثني عشر، لم تقتصر علي مدرسة آل البيت، بل وردت فيها نصوص بعبارات مختلفة بطرق مختلفة.

2 - دراسة مسألة (المهدي) من وجهة النظر العقلية:

ذكرنا أن فكرة المهدي أقدم من الإسلام وأوسع من إطار الشرائع السماوية، لكن تفاصيل هذه الفكرة في الإسلام وخاصة في مدرسة أهل البيت «جاءت أكثر إشباعاً لكل الطموحات التي انشدّت إلي هذه الفكرة منذ فجر التاريخ الديني، وأغني عطاء وأقوي إثارة لأحاسيس المظلومين والمعذبين علي مر التاريخ، وذلك لأن الاسلام حوّل الفكرة من غيب إلي واقع، ومن مستقبل إلي حاضر، ومن التطلع إلي منقذ تتمخض عنه الدنيا في المستقبل البعيد، المجهول إلي الإيمان بوجود المنقذ فعلا، وبتطلعه مع المتطلعين إلي اليوم الموعود، واكتمال كل الظروف التي تسمح له بممارسة دوره العظيم» ((1)).

1- (1) - الإمام الشهيد الصدر، بحث حول المهدي، ص 9.

وهذه القضية تطرح أسئلة متعددة عن العمر الطويل للمهدي، وعن سبب الغيبة، وسبب الانتظار، وعن الدليل العقلي (غير الروائي) لوجود المهدي، وعن كيفية التحول الذي يسفر عنه اليوم الموعود.

هذه المسائل عالجها العلماء بأدلة عقلية وعلمية وبرهنوا عليها سالكين طرق الاستدلال المنطقي والعلمي. وقد يطرح سؤال في هذا الصدد حول سبب طرح المسائل العقلية والعلمية بشأن مسألة ثبتت صحتها في الشريعة بالتواتر.

والجواب هو إن الاطمئنان العقلي (القلبي) يعمّق الإيمان، كما أن طريقة معالجة المسائل الدينية الغيبية علي صعيد عقلي تصلح أن تخاطب المؤمنين بالغيب بكافة درجاتهم وهكذا غير المؤمنين بالغيب، وهي طريقة يحتاجها الدعاة إلي الله في كافة العصور، وخاصة في العصر الذي تطغي فيه الروح المادية، ويسود فيه الجدب الايماني.

حول مسألة (إمكان) طول العمر (التي تقرّها مدرسة آل البيت) وهي أهم مسألة مطروحة علي الصعيد العقلي بشأن المهدي الغائب المنتظر يقسم بعض العلماء «الامكان» إلي معانيه الثلاثة: ((1)).

1 – الإمكان العملي: أن يكون الشيء ممكناً علي نحو يحتاج لفرد أو لأفراد أن يحقّقوه فعلا، كالصعود إلي القمر مثلا.

2 – الإمكان العلمي: وهو أن يكون تحقق الشيء غير مرفوض علمياً،

1– (1) – الامام الشهيد الصدر، بحث حول المهدي، وقد اعتمدنا في استعراض المنهج العقلي في دراسة مسألة المهدي علي هذا الكتاب، فهو جامع علي إيجازه وصغر حجمه، وعلي الرغم من كونه (مقدمة فقط) علي موسوعة تلميذه السيد محمد الصدر، في الإمام المهدي.

ولكنه قد لا يكون ميسوراً حاليا، كالصعود إلي كوكب الزهرة مثلا، فهذا الصعود لا يرفضه العلم غير أن سبله غير ميسورة حالياً، علي العكس من الصعود إلي الشمس فإنه غير ممكن عمليا.

3 – الإمكان المنطقي والفلسفي: هو أن لا يوجد لدي العقل وفق ما يدركه من قوانين قبلية أي سابقة علي التجربة ما يبرر رفض الشيء والحكم باستحالته.

فانقسام العدد (3) إلي عددين متساويين صحيحين مرفوض منطقياً، لأن هذا الانقسام من خصائص العدد (الزوج) والعدد 3 عدد (فردي) ولا يمكن أن يكون العدد زوجياً وفردياً في آن واحد لأن ذلك تناقض والتناقض مستحيل منطقياً.

بينما صعود الإنسان إلي الشمس ممكن منطقياً لأنه لا يستلزم حدوث تناقض، اذ لا تناقض في افتراض أن الحرارة لا تتسرب من الجسم الأكثر حرارة إلي الجسم الأقل حرارة، وإنما هو مخالف للتجربة. من هذا يتبين أن الإمكان المنطقي أوسع دائرة من الإمكان العملي، وهذا أوسع دائرة من الإمكان العلمي.

لاشك أن امتداد عمر الإنسان آلاف السنين يمكن منطقياً، لأنه لا يستوجب حدوث أي تناقض، وليس مستحيلا من وجهة نظر عقلية تجريدية.

والاتجاهات العلمية بأجمعها لا ترفض إمكانية إطالة عمر الإنسان سواء فسّرنا الشيخوخة بوصفها نتاج صراع واحتكاك مع مؤثرات

خارجية أو نتاج قانون طبيعي للخلية الحية نفسها يسير بها نحو الفناء، لأنه من الممكن علمياً تأجيل قانون الشيخوخة بخلق ظروف وعوامل معينة.

من هنا نفهم أن طول عمر الإنسان وبقاءه قروناً متعددة أمر ممكن منطقياً وممكن علمياً ولكنه لايزال غير ممكن عملياً، إلا أن اتجاه العلم سائر في طريق تحقيق هذا الإمكان عبر طريق طويل.

وعلي هذا الضوء يمكن فهم مسألة عمر المهدي عليه الصلاة والسلام وما أحيط بها من استفهام واستغراب.

وبشأن فوائد هذه الغيبة الطويلة ومبرراتها العقلية ذكر انها:

1 – إعداد القائد المنتظر إعداداً نفسياً مشحوناً بالشعور بالتفوق والإحساس بضآلة الكيانات الشامخة التي أعدّ (المهدي) للقضاء عليها ولتحويلها حضاريا إلي عالم جديد.

2 – تعميق الخبرة القيادية في القائد المدّخر لليوم الموعود، عن طريق مواكبة الحضارات المتعاقبة والمواجهة المباشرة لحركتها وتطوراتها.

3 – ضرورة قرب القائد المنتظر من مصادر الإسلام الأولي وبناء شخصيته بناء كاملا بصورة مستقلة ومنفصلة عن مؤثرات الطروحات البشرية المنحرفة.

وثمة سؤال أخر يطرح حول سبب امتداد الغيبة وسبب عدم الظهور طيلة هذه المدة.

والجواب: أن نجاح كل عملية تغيير اجتماعي ترتبط بتوفر شروط وظروف موضوعية.

وقـد جرت سـنة الله تعالي في عمليات التغيير الرباني علي التقيـد من الناحيـة التنفيذية بالظروف الموضوعية التي تحقق المناخ المناسـب والجو العام لإنجاح عملية التغيير، ومن هنا لم يأت الإسلام إلا بعد فترة من الرسل وفراغ مرير استمر قروناً من الزمن.

وعملية التغيير الكبري هذه لا يكفي في ممارسـتها مجرد وصول الرسالة والقائد الصالح، والا لتمّت شـروطها في عصر النبوة بالذات، وانما تتطلب مناخاً عالمياً مناسباً وجواً عاماً مساعداً يحقق الظروف الموضوعية المطلوبة لعملية التغيير العالمية.

والشروط الموضوعية لظهور المهدي عليه السلام تتوفر علي الصعيد البشري بشعور عام بسلبيات البناء الحضاري القائم وبحاجته إلي العون ملتفتاً بفطرته إلي الغيب أو إلي المجهول.

وتتوفر علي الصـعيد المادي بتطور الوسائل الماديـة الحديثـة إلي درجة توفير الأدوات والوسائل التي يحتاجها جهاز مركزي لممارسة توعية شعوب العالم وتثقيفها علي أساس الرسالة الجديدة.

هـذه هي أهم المسائل المطروحـة علي المنهـج العقلي في دراسـة مسألـة المهدي، استعرضـتها كما ذكرت من المقدمة التي كتبها الإمام الشـهيد محمد باقر الصدر قدس سره علي موسوعة تلميذه الشهيد السيد محمد الصدر، وهذه الموسوعة تكفلت بمعالجة المسألة علي كافة الاصعدة بشكل واف وعميق ((1)).

1- (1) - راجع تاريخ الغيبة الصغري، تاريخ الغيبة الكبري، تاريخ مابعد الظهور، اليوم الموعود.

3 - دراسة مسألة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ

والدراسة المنشورة في هذا الكتاب تحت عنوان: «نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ» نموذج لمثل هذه الدراسة.

وقبل أن أستعرض منهج الدراسة، لابد أن أشير إلي مسألة دأب علي ذكرها علماء الاجتماع الغربيون وتلامذتهم من المسلمين مع الاسف عند حديثهم عن مسيرة التاريخ.

حين يستعرض هؤلاء التفاسير المختلفة لمسيرة التاريخ أو مسيرة المجتمع البشري يتحدثون عن «التفسير الديني لمسيرة المجتمع» باعتباره واحداً من الاتجاهات التشاؤمية لتفسير المسيرة البشرية ((1)).

وحجتهم في ذلك قصة آدم، المذكورة في الكتب السماوية. وهذه القصة تذهب علي حدّ قول الغربيين والمتغربين إلي أن آدم (وهو رمز لبني الإنسان) كان يعيش في الجنّة رغداً آمنا منعماً لكنه ارتكب خطيئة أدّت به إلي أن يطرد من الجنة، ويلاقي هو وأولاده النصب والعناء في هذه الدنيا، ومن هنا فالحياة البشرية، في النظرة الدينية، محكوم عليها بالإرهاق والتعب والنصب، ولاراحة لبني البشر ألا بالعودة إلي الجنة التي أخرج أبوهم منها.

هذا اللون من الفهم لقصة آدم قد ينسجم مع تفاسير الكنيسة المسيحية وعرض الاناجيل الموجودة، لهذه القصة، لكنه بعيد كل البعد عن الفهم الإسلامي القرآني لها.

1- (1) - راجع «مسيرة المجتمع» عبدالجليل الطاهر.

لا يمكن في هـذه المقدمة اسـتعراض تفاصـيل قصة آدم من وجهة النظر القرآنية، ومعطياتها والدروس العظيمة المسـتخلصة منها، فنكتفي بذكر بعض آيات هذه القصة وجانب من دروسها بقدر ما يتعلق الأمر بمستقبل المسيرة البشرية.

قال تعالي: وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلي آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِـيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً، وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ أَبي، فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَـدُوٌّ لَـكَ وَ لِزَوْجِـكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمـا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْـقي، إِنَّ لَـكَ أَلاّ تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْري، وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْـحي، فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلي شَـجَرَةِ الْخُلْـدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلي، فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِـفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصـي آدَمُ رَبَّهُ فَغَوي، ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَـدي، قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُـكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقي، وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمي

(طه/ 115-123).

الآيات تتحدث أولا عن مكانة آدم في الوجود، وهي مكانة استحق فيها أن تسجد له الملائكة، لأنه خليفة الله كما تذكر آيات أخري.

وقصـته في الجنة هي قصة مرور الممثل الأول للإنسانية التي استخلفها الله تعالي علي الارض بفترة حضانة استثنائية علي حد تعبير الشهيد محمد باقر الصدر - ((1)). لتنمو فيه مؤهلات ممارسة الخلافة علي الأرض

1- (1) - خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، فصل مسار الخلافة الربانية علي الارض.

من ناحية فهم الحياة ومشاكلها المادية، ومن ناحية مسؤولياتها الخلقية والروحية.

«وقد استطاعت المعصية التي ارتكبها آدم بتناوله من الشجرة المحرمة أن تحدث هزة روحية كبيرة في نفسه وتفجر في أعماقه الإحساس بالمسؤولية من خلال مشاعر الندم... وبهذا تكامل وعيه في الوقت الذي كانت قد نضجت لديه خبرات الحياة المتنوعة.

وتعلّمَ الاسماءَ كلها فحان الوقت لخروجه من الجنّة إلي الارض التي استخلف عليها ليمارس مسيرته نحو الله من خلال دوره في الخلافة».

لقد خرج وهو محمّل بتجربة عظيمة أوضحت له ضرورة الالتزام بهدي الله وعدم الانحراف عن الطريق الذي رسمه ربّ العالمين لبني الإنسان. ومادامت البشرية سائرة علي هذا الطريق فإنها لا تضلّ ولا تشقي، لكنها إن انحرفت، تُمني بمعيشة ضنكي.

ليست الإنسانية محكومة بالضلال والشقاء إذن، بل إن الله هدي البشرية فطريا وزوّدها بتجربة ذاتية نحو السعادة الحقيقية.

ومتي ما انحرفت المسيرة هيأ الله من يوجّه البشرية نحو سعادتها الحقيقية ويكون (شاهداً) عليها.

وبشأن مستقبل المسيرة البشرية يطرح علماء الاجتماع الغربيون والمتغرّبون الماركسية باعتبارها مدرسة تفاؤلية فسّرت المسيرة ومستقبلها تفسيراً يبعث علي الامل في المستقبل ويبشّر بمجتمع تزول فيه كل ألوان الظلم والاستغلال.

مطهّري يطلق علي التفسير المذكور للتاريخ إسم «التفسير الآلي» لأنه يتّخذ من تطور وسائل الانتاج أساسا لتفسير كل ظواهر التاريخ والمجتمع.

ثم يطرح مقابل ذلك «التفسير الإنساني» لمسيرة التاريخ، ويبيّن

خصائص كل واحد من هذين التفسيرين، ونقاط التقائهما وافتراقهما.

ثم يوضح أنّ التفسير الإسلامي لمسيرة التاريخ هو «تفسير إنساني» وهنا تجدر الإشارة إلي أنّ مطهري لا يعالج في هذه الدراسة مسألة فلسفة التاريخ إلاّ بقدر ما يتعلق بمسألة انتظار (المهدي) عليه السلام مؤكداً أن هذا الانتظار للمستقبل المشرق، الذي وعد الله تعالي به البشرية إذ قال: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَي الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (القصص: 5)..

وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُونَ (الانبياء: 105).

رافضاً بذلك النظرة التقاعسية الاتكالية للانتظار، التي تقف موقف المتفرج من استفحال الانحراف والفساد والطاغوت علي ظهر الارض، انتظاراً لحدوث معجزة التغيير ((1)).

ويؤكد الأستاذ الشهيد مرتضي مطهري أن ظهور المهدي أو ظهور الدولة الإسلامية العالمية يسبقه سلسلة من الانتفاضات والنهضات التي تمهّد لظهور ذلك المجتمع الإنساني العالمي، وتدعم جبهة أنصار الحق في صراعها مع جبهة الباطل.

ويخلص الأستاذ الشهيد من بحثه إلي أن «المهدي المنتظر تجسيد لأهداف الأنبياء والصالحين والمجاهدين علي طريق الحق».

المترجم

1- (1) - قدم الشهيد مطهري دراسة عن مسائل التاريخ والمجتمع في كتابه «المجتمع والتاريخ» منشور في مؤسسة البعثة، طهران.

الفصل الثاني: نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ

اشارة

ص:25

نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ

الفِرق والمذاهب الإسلامية تُجمع – مع اختلاف طفيف بينها – علي حتمية انتصار قوي الحق والعدالة والسلام في صراعها مع قوي الباطل والظلم والعدوان في نهاية المطاف، وتؤمن بغد يشع فيه نور الاسلام علي جميع ربوع المعمورة، وتسود فيه القيم الانسانية سيادة تامة، ويتحقق ظهور المدينة الفاضلة والمجتمع الأمثل.

المسلمون يجمعون أيضا أن هذه الآمال الانسانية الكبيرة ستتحقق علي يدشخصية مقدسة أطلقت عليها الروايات الإسلامية اسم «المهدي».

هذه الفكرة تنطلق أساسا من المفاهيم القرآنية التي تؤكد علي حتمية انتصار رسالة السماء ((1)). وحتمية انتصار الصالحين ((2)). والمتقين، وحتمية انهزام قوي الظلم والطغيان ((3)). وحتمية بزوغ فجر غد

1- (1) – هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدي وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَي الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (التوبة: 33) (الصف/ 9).

2- (2) – وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُونَ (الانبياء: 105)

3- (3) – وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَي الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (القصص: 5)

مشـرق سعيد علي البشرية ((1)). هـذه الفكرة تنطوي قبل كل شـيء علي نظرة تفاؤليـة تجاه المسـيرة العامة للنظام الطبيعي وتجاه مسـيرة التاريخ، وتبعث الأمل في المستقبل، وتزيل كل النظرات التشاؤمية بالنسبة لما تنتظره البشرية في آخر تطلعاتها.

انتظار الفرج

الأمل في تحقق هذا الهدف الانساني العالمي، ورد في الروايات الإسـلامية بعبارة «انتظار الفرج» واعتبر الإسلام هذا الانتظار عبادة بل من أفضل العبادات.

مبدأ انتظار الفرج يمكن استنباطه من مفهوم قرآني آخر هو «حرمة اليأس من روح الله».

المجموعة المؤمنة بالنصر الالهي لا تفقد الأمل مهما قست الظروف ولا تسلم نفسها لليأس والعبث بأي حال من الأحوال.

مفهوم انتظـار الفرج وعـدم اليأس من رَوح الله من المفاهيم الإسـلامية الشاملـة التي لا تختص بفرد معين أو جماعـة محـددة، فهو يحمل البشائر للبشرية بأجمعها، ويحمل معه أيضا صفات محددة لهذه البشائر.

نوعان من الانتظار

انتظار الفرج، والتطلع إلي مستقبل أفضل علي نوعين:

الأول: انتظار مثمر بناء يبعث علي الالتزام ويمنح القوة والتحرك،

1- (1) - قالَ مُوسي لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (لأعراف: 128)

ومثل هذا الانتظار يمكنه أن يكون نوعاً من العبادة وطريقاً لطلب الحق.

الثاني: انتظار محرّم هـدّام يؤدّي إلي الوقوع في الأغلال وإلي شلّ الطاقات، ويمكن اعتباره نوعاً من «الإباحيـة» كما سـنوضح ذلك في آخر هذا البحث.

هـذان النوعـان من الانتظـار ينطلقان من انطباعين مختلفين عن ظهور المهـدي الموعود. وهـذان الانطباعان بـدورهما ناشـئان عن رؤيتين متباينتين للتطورات والتغيرات التاريخية. من هنا يلزمنا أن نلقي بعض الضوء علي طبيعة مجري الأحداث التاريخية.

شخصية المجتمع وطبيعته

هل التطورات التاريخية سلسلة من الأمور الطبيعية أم مجموعة من الأحداث التي تتحكم فيها الصدفة والاتفاق؟

الطبيعة خالية طبعاً من الصدفة الواقعية، أي خالية من بروز أو حدوث ظاهرة ليست لها علة. لكن الصدفة موجودة بشكل نسبي قطعاً.

لو خرجتَ صـباح أحـد الايام من بيتك، وشاهدتَ صديقاً لك لم تره منذ سـنين وهو يمر من أمام بيتك، فإنك سـتقول: إن هذا اللقاء حدث بطريق المصادفة والاتفاق.

لماذا؟.. لأن طبيعة الخروج من البيت – بشكل عام – لا تستلزم مثل هذا اللقاء. ولو استلزم ذلك لا لتقيت بهذا الصديق كل يوم.

نحن إذن نطلق اسم «الصدفة» علي كل ظاهرة لا تنسجم علتها مع الطبيعة العامة لعلة تلك الظاهرة.

ما يحدث بالصدفة لا يخضع لضوابط عامة، ولا لقوانين علمية، إذ إن القوانين العلمية تعبر عن الاحداث العامة للطبيعة.

نعود الي السؤال الذي طرحناه آنفا..

رب قائل: إن أحـداث التاريـخ هي سلسـلة من الصـدف والاتفاقات، أي إنها لا تنضـبط تحت قاعدة عامة.. هذه المقولة تعني: أن المجتمع عبارة عن مجموعـة من أفراد ذوي طبائع فرديـة شخصـية، وما يقوم به هؤلاء الأفراد من نشاطات نابعة من دوافعهم الفردية الشخصـية، يؤدي إلي سلسلة من المصادفات والاتفاقات.. وهذه بدورها تؤدي إلي التغييرات التاريخية.

هذه نظرة

والنظرة الاخري تري أن للمجتمع وجوده وشخصـيته المسـتقلة عن الأفراد، وله مسيرته التي تقتضيها طبيعته وشخصيته. فشخصية المجتمع هي غير شخصـية الأفراد، والشخصـية الواقعيـة والحقيقية للمجتمع تركيب مكون من التفاعل الثقافي للأفراد كسائر التراكيب المشـهودة في الطبيعة الحية والجامدة.

المجتمع – بناءاً علي هـذا – له طبيعته وقواعده وضوابطه الخاصة التي تؤطّر مسـيرته، وهذه المسـيرة بكل ما فيها من أفعال وردود أفعال إنما تقوم علي أساس قوانين كلية عامة.

لا يمكن أن تكون للتاريخ فلسفة ولا قواعد ولا ضوابط عامة، ولا بمقدوره أن يكون موضوعاً للفكر وأساساً للدراسة والتذكر والاعتبار ما لم

يكن للمجتمع شخصـية مستقلة وطبيعة خاصة. وإن افتقد المجتمع هذه الشخصية المستقلة تحول التاريخ إلي تعبير عن حياة مجموعة من الأفراد، وفقـد عطاءه التربوي. وان كانت في مثل هـذا التاريـخ عظـة وعبرة، اقتصـرت العظة والعبرة علي الحياة الفردية ولا تتعداها إلي حياة الشعوب والجماعات.

فهمنا لأحداث التاريخ يقوم إذن علي أساس فهمنا لشخصية المجتمع وطبيعته.

القرآن والتاريخ

مسألـة «انتظار الفرج» التي نريـد معالجتها في هـذا البحث دينيـة إسـلامية، ذات جذور قرآنية، إضافة لما لها من طابع فلسـفي واجتماعي. ينبغي علي هذا أن نوضح رأي القرآن في المجتمع وأحداثه وتطوراته قبل البحث في مسألة الانتظار.

ليس ثم شك في أن القرآن الكريم يـذكر التاريـخ علي أنه مصدر للتذكّر والتفكّر ولتلقّي العبرة والدروس. لكن السؤال الذي يطرح نفسه في هـذا الصـدد يـدور حول طبيعـة النظرة القرآنيـة للتاريـخ، أهي نظرة فردية أم اجتماعية؟ هل ينطلق القرآن في طرح العبر والدروس من حياة الأفراد أم من حياة الجماعات؟

وإذا كان القرآن يتجه في سـرده للتاريخ إلي حياة الجماعات لا الأفراد.. فهل هذا يعني أن القرآن يعتبر المجتمع شخصـية مسـتقلة مدركة، ذات قوة وشعور، ومستقلة عن حياة الأفراد؟

وإذا كان جواب السؤال الاخير إيجابيا، فهل نستطيع أن نستنبط من القرآن الكريم السنن والقوانين التي تحكم المجتمعات؟

هذه المواضيع تحتاج إلي دراسات وافية وتتطلب تدوين رسائل مستقلة ((1)).

نستطيع هنا أن نشير بشكل موجز جداً إلي أن القرآن ينطلق في قسم من دروسه وعبره - علي الأقل - من حياة الأمم والجماعات.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمّا كانُوا يَعْمَلُونَ (البقرة: 141).

القرآن يطرح مراراً مسألة حياة الامم وآجالها فيقول مثلا:

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (الأعراف: 34)

القرآن الكريم يرفض بشدة النظرة العبثية الي التاريخ ويشدد علي وجود قواعد ثابتة دائمة لمسيرة الامم والجماعات فيقول: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللّهِ تَبْدِيلاً وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللّهِ تَحْوِيلاً (فاطر: 43).

القرآن يشير إلي مسألة تربوية هامة في حقل القوانين التي تحكم التاريخ حين يؤكد أن البشرية هي التي ترسم بيدها مصيرها عن طريق ما تقوم به من أعمال صالحة أم طالحة.

وهذا يعني أن النظرية القرآنية تذهب إلي أن قوانين المسيرة البشرية

1- (1) - راجع تفسير «الميزان»، الجزء 4، ص 103، الجزء 7، ص 333، الجزء 8، ص 85، الجزء 10، ص 71-73، الجزء 18، ص 191

ماهي إلا سلسلة من ردود الفعل لما تفعله الأقوام والجماعات.

من هنا نفهم أن النظرية القرآنية تؤكد علي وجود قوانين ونواميس كونية ثابتة لمسيرة التاريخ، كما تؤكد في الوقت ذاته علي دور الإنسان وحريته واختياره.

في القرآن الكريم آيات كثيرة بهذا الصدد، نذكر منها علي سبيل المثال الآية 11 من سورة الرعد: إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّي يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ.

تفسير تكامل التاريخ

المدرسة الفكرية التي تنظر إلي المجتمع باعتباره موجوداً ذا شخصية مستقلة وطبيعة خاصة، لها نظرتها المعينة أيضا إلي تكامل المجتمع، ولها تفسيرها الخاص لطبيعة المسيرة البشرية ولمسألة التكامل.

مرَّ بنا أن القرآن الكريم يؤكد علي شخصية المجتمع وواقعيته، كما يؤكد أيضا علي الاتجاه الارتقائي التكاملي للمجتمع.

ومن جهة اخري نعلم أن ثمة مدارس فكرية أخري تذهب أيضا إلي أن مسيرة البشرية تسير سيراً ارتقائيا تفرضه حتمية التاريخ.

من هنا كان لزاما علينا أن نلقي الضوء علي الفرق بين النظرة القرآنية في هذا المجال ونظرة بعض المدارس الفكرية الأخري، وأن نفهم من خلال ذلك دور الإنسان ومسؤوليته لنستجلي من ذلك كله طبيعة «الانتظار الكبير» وكيفيته.

طريقتان مختلفتان

تكامل التاريخ يمكن تفسيره بطريقتين مختلفتين: إحدي هاتين

الطريقتين نطلق عليها اسم التفسير «الآلي» أو الديالكتيكي.

والطريقة الاـخري: التفسير «الانساني» أو «الفطري». ومن هاتين الطريقتين المتباينتين لتفسير تكامل التاريخ ينبثق اتجاهان فكريان مختلفان شكلاً وماهية.

نستعرض فيما يلي هاتين الطريقتين بقدر ما يتعلق الموضوع بمسألة «الانتظار» و «الأمل» بالمستقبل لا أكثر.

الطريقة الديالكتيكية أو الآليّة

هذه الطريقة تفسر تكامل التاريخ علي أساس الصراع بين النقائض. وأولئك الذين يتّخذون من هذه الطريقة وسيلة لتفسير تكامل المسيرة البشرية لا يقتصرون علي التاريخ بل يفسرون كل أجزاء الطبيعة علي هذا الأساس.

نشير فيما يلي بشكل موجز الي التفسير الديالكتيكي للطبيعة باعتباره أساساً للتفسير الآلي للتاريخ.

يقوم التفسير الديالكتيكي للطبيعة علي الأسس التالية:

أولا: الطبيعة في حركة مستمرة ودائمة، وليس فيها ما هو ساكن وثابت، فالنظرة الصحيحة للطبيعة إذن هي أن نري الأشياء في حالة حركة وتغير دائمين، والفكر هو أيضا متغير باعتباره جزءاً من الطبيعة.

ثانيا: كل جزء من أجزاء الطبيعة يتأثر بأجزاء الطبيعة الأخري ويؤثر فيها. فهناك ارتباط عام بين جميع الأجزاء، وعلي هذا فالنظرة إلي الطبيعة

لا تكون صحيحة مالم تدرس جميع الأشياء وهي مرتبطة مع بعضها، لا مفككة ومجزأة.

ثالثا: الحركة ناشئة عن صراع النقائض. فكما قال «هرقليطس» اليوناني قبل خمس وعشرين قرناً: الصراع أساس كل تطور.

وصراع النقائض يأتي عن طريق اتجاه كل ظاهرة نحو ضدّها ونقيضها، وهذه الظاهرة تحمل نقيضها معها. فكل ظاهرة موجودة ومعدومة في آن واحد. لأنها تحمل عوامل عدمها وفنائها معها.

ومع نمو النقيض يحتدم الصراع بين الظاهرة الأصلية التي نريد الحفاظ علي وضعها ووجودها، وبين نقيضها الذي يريد أن يبدلها إلي ضدها.

رابعا: الصراع بين النقائض داخل الظواهر يزداد شدة باستمرار حتي يبلغ ذروته، أي إن التغيير الكمي يزداد ليبلغ أقصي حد ممكن، وحينئذ تحدث طفرة ثورية في التغييرات الكمية لتتحوّل إلي تغييرات كيفية، وينتهي الصراع لصالح القوي الجديدة، وتندحر القوي القديمة ويتبدل الشيء بأجمعه إلي نقيضه.

فهذه الطريقة لفهم الوجود تتلخص إذن في افتراض قضية أولي وجعلها أصلاً وهي ما يطلق عليها اسم «الاطروحة» ثم ينقلب هذا الاصل إلي نقيضه وهو «الطباق» بحكم الصراع في المحتوي الداخلي بين المتناقضات، ثم يأتلف النقيضان في وحدة وهي «التركيب» وتصبح هذه الوحدة بدورها أصلا ونقطة انطلاق جديدة، وهكذا يتكرر هذا التطور الثلاثي وبهذا الشكل تطوي الطبيعة مراحل تكاملها.

ص:35

فالطبيعـة ليست هادفة ولا تنشد كمالها، بل تتجه نحو انهدامها، لكن هذا الانهدام يحمل بدوره عنصـر انهدامه، وكل نقيض يتجه بدوره نحو نقيضه.. والنفي نوع من التركيب الذي يؤدي إلي دفع التاريخ نحو التكامل بشكل حتمي وجبري.

والتاريخ جزء من الطبيعة، وهو لذلك يطوي نفس مسيرة الطبيعة علي الرغم من أن عناصر المسألة التاريخية هم أفراد البشر.

أي إن التاريـخ هو تحرك مسـتمر وارتباط متبادل بين الإنسان والطبيعـة، والانسان والمجتمع.. وهو مواجهـة وجدل دائمان بين المجموعات الإنسانيـة الفتيـة، والمجموعات التي تتجه نحو الزوال.. وهـذه المواجهـة تؤدي في نهايـة الامر إلي حركـة حادة ثوريـة لصالح القوي الفتية النامية.

بعبارة أخري: التاريخ مسرح لصراع الاضداد.. حيث تتجه كل ظاهرة نحو ضدها ثم يتم التكامل علي أثر تركيب الأضداد.

هذه النظرية تذهب بعد ذلك إلي أن العمل الانتاجي هو أساس حياة البشرية والعامل المحرك للتاريخ.

فالعمل الاجتماعي في أيـة مرحلـة من مراحل التاريـخ يخلق نوعاً خاصاً من العلاقات الاقتصاديـة بين الأفراد. وهـذه العلاقات الاقتصادية تؤدي الي انبثاق مجموعات من العلاقات الأخري كالعلاقات الخلقية والسياسية والقضائية والعائلية ونظائرها.

والعمل الإنتاجي لا يتوقف علي شكل معين، إذ إن الإنسان مزود بقدرة علي تطوير وسائل الانتاج. وتكامل وسائل الانتاج يؤدي إلي

زيادة الانتاج وإلي خلق جيل جديد يحمل أفكاراً جديدة متكاملة. أي إن هناك تأثيراً متبادلاً بين الإنسان والآلة، الإنسان يخلق الآلة، والآلة تخلق الإنسان الجديـد. ومن جهـة أخري، زيادة الإنتاج تؤدي إلي إيجاد علاقات اقتصادية جديدة، ومن هذه العلاقات الاقتصادية الجديدة تنبعث مجموعـة أخري من العلاقات الاجتماعية. وهذا هو المقصود من مقولة: الاقتصاد يشـكل البناء التحتي للمجتمع، وكل ما عداه فهو بناء فوقي. أي إن جميع الأوضاع الاجتماعية معلولة للوضع الاقتصادي.

وعندما يتغير البناء التحتي علي أثر تطور وسائل الإنتاج تتغير كل الأبنية الفوقية. وفي هذه الحالة تحاول القوي التي ترتبط مصالحها بالوضع الاقتصـادي القـديم أن تحافظ علي هـذا الوضع بشـكله الموجود، لكن الطبقـة الفتيـة المرتبطـة بوسائل الإنتاج الجديـدة تري أن مصالحها تقتضـي تغير الأوضاع وإحلال نظام اقتصادي جديد، ومن هنا تسـعي إلي تغيير المجتمع وتطويره وإلي إيجاد نوع من التناسق بين المسائل الاجتماعية من جهة ووسائل الانتاج المتكاملة ومستوي الإنتاج الجديد من جهة أخري.

ويسـتمر الصـراع بين الفريقين: فريق رجعي ومرتبـط بالماضـي، والآـخر تقـدمي يرتبـط بالمسـتقبل. أحـدهما: يري ضـرورة بقاء الأوضاع الموجودة من أجل استبقاء وجوده. والآخر: يسعي نحو أجواء جديدة وأوضاع جديدة: أحدهما: يتجه نحو الزوال، والآخر: نحو النمو.

ويشتد هذا الصراع ويحتدم ليبلغ ذروته حيث يحدث الانفجار، ويتبدل المجتمع في خطوة ثورية تبدلا يتمثل بتغير النظام القديم

وإحلال النظام الجديد وانتصار القوي الجديدة وفشل القوي القديمة.

وهنا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل التاريخ، وهذه المرحلة الجديدة تتطور أيضا إلي مرحلة جديدة أخري بنفس الطريقة السابقة.

فالتاريخ في مفهوم هذه النظرية يطوي مسيرته عبر الأضداد. وكل مرحلة من مراحل التاريخ تحمل في أحشائها المرحلة التالية. وبعد صراع مستمر تترك المرحلة السابقة مكانها للمرحلة التالية.

هذا الاتجاه الفكري لتفسير الطبيعة والتاريخ يسمي الاتجاه الديالكتيكي.

ولما كان هذا الاتجاه يعتبر كل القيم والأوضاع الاجتماعية في جميع مراحل التاريخ مرتبطةً بوسائل الإنتاج وتابعة لها، فقد أطلقنا عليه اسم «التفسير الآلي» ومتي ما ذكرنا مصطلح «التفسير الآلي للتاريخ» فإننا نقصد به هذا اللون من التفكير.

العنصر الأساسي

ما هو العنصر الأساسي الذي يمتاز به التفكير الديالكتيكي في حقل التاريخ والطبيعة؟

ما هو الفرق الرئيسي بين هذا الاتجاه وهذا المنطق، والاتجاهات الفكرية والمنطقية الأخري.

ما الذي يميز هذا التفسير للظواهر الطبيعية عن التفسير الذي يطلق عليه أرباب المنطق الديالكتيكي اسم «التفسير الميتافيزيقي»؟

دعاة المنطق الديالكتيكي يتّبعون مع الأسف طريقة «الغاية تبرر

الوسيلة» في عرض المفاهيم، وهم لذلك يلقون التهم تلو التهم علي ما يسمونه بالمنطق الميتافيزيقي، عند إجابتهم علي الأسئلة المذكورة.

ويقولون: إن التفكير الـديالكتيكي ينظر إلي جميع الاشـياء باعتبارها متحركـة، بينما يعتبر الاتجاه الميتافيزيقي جميع أجزاء الطبيعـة ساكنة جامدة.

لكن الحقيقـة غير ذلك، فأرباب الاتجاه الميتافيزيقي لا ينظرون الي الأشـياء باعتبارها جامـدة غير متحركـة، بل بالعكس فالبحوث المتعلقة بالطبيعة في الفلسفة الالهية تري أن السكون في الطبيعة مفهوم نسبي والثبات من خصائص ماوراء الطبيعة ((1)).

ويقولون أيضا: ان التفكير الديالكتيكي يعتبر الاشـياء مرتبطة مع بعضـها وذات تأثير متبادل علي بعضـها. بينما اصـحاب مايسمي بالمنطق الميتافيزيقي ينظرون إلي الاشياء مفككة غير مترابطة مع بعضها.

وهذا مخالف للواقع، فما يسـمونه بالمنطق الميتافيزيقي لا ينظر إلي الاشياء باعتبارها منفصلة مفككة عن بعضها ((2)). الفلاسفة الإلهيون أول من نظر إلي أجزاء العـالم باعتبارهـا مرتبطـة مع بعضـها ارتباطـاً عضويـاً، والي العـالم علي أنه إنسان كبير، وإلي الإنسان علي أنه عالم صغير، مع فارق في التعبير وطريقة الاستنتاج بين الماديين والإلهيين في هذا الصدد.

ويقولون كذلك: إن المسألة الاساسية التي تميز التفكير الديالكتيكي

1- (1) - للتوسع في هذا الصدد راجع «فلسفتنا» محمدباقر الصدر، فصل «حركة التطور» (المترجم).
2- (2) - راجع نفس المصدر، فصل «الارتباط العام» (المترجم).

عن التفكير الميتافيزيقي هي مسألة التضاد. ويستند هؤلاء الي المبدأ المعروف في المنطق والفلسفة القائل بعدم إمكان اجتماع النقيضين وارتفاعهما ليستنتجوا: أن التفكير الميتافيزيقي يرفض أي نوع من التناقض وأنه يري جميع أجزاء الطبيعة منسجمة مع بعضها حتي الماء والنار! وأن أرباب التفكير الميتافيزيقي يدعون القوي الاجتماعية الكادحة المسحوقة - انطلاقا من رؤيتهم هذه - إلي المصالحة والمسالمة (كذا!).

والحقيقة أن المبدأ المذكور لا علاقة له إطلاقاً بمسألة التناقض، وهذا اللون من الاستنتاج تحريف للحقائق.. فأصحاب التفكير الإلهي يرون أن التضاد في عناصر الطبيعة شرط لازم لدوام الفيض من الباري تعالي ((1)).

ويدعون أيضا: أن العنصر الأساسي الذي يمتاز به التفكير الديالكتيكي في حقل التاريخ والطبيعة هو مبدأ قفزات التطور والحركات الثورية في التاريخ.

لكن هذا الادعاء مرفوض أيضا لأن مسألة قفزات التطور ليست لها أصالة في التفكير الديالكتيكي.

هيغل - أبو الديالكتيك - لم يذكر هذا المبدأ ضمن مبادئ الديالكتيك، وهكذا كارل ماركس.

مبدأ قفزات التطور ظهر في القرن التاسع عشر في علم الأحياء وأضافه أنجلس - تلميذ ماركس - إلي مبادئ الديالكتيك، واليوم يعتبر

1- (1) - كتب المؤلف الشهيد مقالاً قيماً في هذا الحقل تحت عنوان «أصل التضاد في الفلسفة الإسلامية».

هذا المبدأ من قوانين علم الأحياء، وليس له ارتباط بأية مدرسة فكرية.

فما هو العنصر الأساسي أذن؟

العنصر الأساسي الذي يمتاز به هذا الاتجاه الفكري عن غيره من الاتجاهات يتلخص بمايلي:

1 – قوله بديالكتيكية الفكر: أي إن الفكر الإنساني جزء من الطبيعة، وهو بالتالي خاضع لقوانين الديالكتيك الأربعة: «حركة التطور – وتناقضات التطور – وقفزات التطور – والارتباط العام». والاتجاه الديالكتيكي ينفرد في هذا، ولا يشاركه فيه اتجاه آخر.

2 – تحديده للتناقض بالانتقال من الأطروحة إلي الطباق ومنه إلي التركيب، أي إن الديالكتيك يفهم التناقض بأنه ضرورة احتواء كل ظاهرة علي ضدها، ثم انتقال تلك الظاهرة إلي حالة الضد، وهذه الحالة الجديدة تستمر في التطور علي نفس الطريقة. وبذلك فالطبيعة والتاريخ يطويان مسيرتهما عبر الأضداد. والتكامل في رأي الديالكتيك هو اجتماع الضدين في تركيب جديد.

مبدأ التناقض قديم، وهو يعني أن أجزاء الطبيعة في حالة صراع بل وأحيانا في حالة تركيب مع بعضها. وما أضافه الفكر الديالكتيكي إلي هذا المبدأ هو أن الصراع بين المتناقضات لا يقتصر علي أجزاء الطبيعة، بل إن كل ظاهرة تربّي في أحشائها نقيضها، وتبرز ظاهرة التناقض بالصراع بين العوامل الجديدة.

هاتان الخاصيتان تشكلان العنصر الأساسي للفارق بين التفكير الديالكتيكي والتفكير غير الديالكتيكي.

ومن الخطأ – بناءاً علي ماتقدم – إضفاء صفة الديالكتيك علي كل مدرسة تؤمن بمبدأي الحركة والتناقض بين أجزاء الطبيعة.

لقـد حاول البعض وصف الفكر الإسـلامي بأنه فكر ديالكتيكي بعـد أن شاهـدوا مبـدأ الحركة والتغير والصـيرورة وكذلك مبدأ التناقض في التراث الإسلامي.

والحقيقة غير ذلك، فالفكر الإسلامي يؤمن بوجود حقائق ثابتة خالدة غير قابلة للتغير، وهذا مالا يؤمن به الفكر الديالكتيكي الذي يعتبر كل مافي الذهن من حقائق عن العالم إنما هي مؤقتة ونسبية.

إضافة إلي ذلك؛ فالتناقض في التراث الإسـلامي يتعارض مع مفهوم التناقض الديالكتيكي الذي يحصـر حركة التاريخ والطبيعة بالسـير عبر مثلث «الاطروحة والطباق والتركيب».

هـذا الخطأ ناشـئ بالدرجـة الأولي من التهريـج الذي يعمد إليه كثير من أتباع المادية الديالكتيكية حين يطلقون في أحاديثهم اسم الاتجاه الميتافيزيقي علي كل اتجاه فكري غيرديالكتيكي، ثم يرشـقون هـذا الاتجاه الميتافيزيقي بوابل من التهم كعـدم الإيمان بالحركة وبالارتباط العام وبالتناقض.

هذه التهم تطرح ضمن ثرثرة لغوية مسهبة وبعبارات قاطعة حاسمة تدفع بقارئها السطحي إلي الإيمان بأن الحركة والارتباط

العام والتناقض مبادئ يختص بها الفكر الديالكتيكي وحده لا غير.

ومثل هذا القارئ يتخذ تجاه الفكر الإسلامي أحد موقفين خاطئين: إما أن يضع الإسلام باعتباره ديناً سماوياً إلي صف الأفكار الميتافيزيقية (غير الديالكتيكية)، ويخرج بنتيجة سريعة هي: أن الفكر الإسلامي كسائر الأفكار الميتافيزيقية يقوم علي أساس الثابت والسكون وعدم وجود ارتباط عام بين أجزاء الطبيعة وعدم وجود تناقض بين هذه الأجزاء.

وإما أن يكون هذا القارئ مطلعاً علي الفكر الإسلامي وعالما بخلوّ هذا الفكر مما يتّهم به الفكر الميتافيزيقي، بل بوجود مبادئ الحركة والارتباط العام والتناقض في الفكر الإسلامي، فيستنتج من ذلك أن التفكير الإسلامي ليس بميتافيزيقي.

ولما كان دعاة المادية الديالكتيكية قد أوحوا له أن الاتجاهات الفكرية لتفسير الطبيعة لا تزيد علي اثنين: الديالكتيكي والميتافيزيقي، فإن مثل هذا القارئ يضفي صفة الديالكتيكية علي الفكر الإسلامي.

هذه الأخطاء التي يقع فيها القارئ السطحي ناتجة – كما قلنا – عن تساهل دعاة المادية الديالكتيكية في عرض أفكار الآخرين، وعن انتهاجهم أسلوب التهريج وإلقاء التهم بالنسبة للاتجاهات الفكرية غير الديالكتيكية، وحقيقة المسألة – كما ذكرنا – هي غير ذلك.

نتائج الاتجاه الآلي لتفسير التاريخ

1 – مفهوم القديم والجديد:

تعبير القديم والجديد في المنطق الديالكتيكي لا ينطلق من تعاقب

جيلي، أي لا يعني المجابهـة بين الجيل الجديد والجيل القديم. لا يعني أن الجيل الجديد يقف بالضـرورة في صـفوف الجبهة الثورية، ولا يعني أيضا أن الجيل القديم يقف بالضرورة في الجبهة المحافظة.

كما أن هذا المفهوم لا ينطلق من إطار ثقافي، أي إنه لا يعني المجابهة بين المثقفين والأميين. بل إنه مفهوم اجتماعي واقتصادي بحت.

فالطبقـة القديمـة هي التي ترتبط مصالحها بالوضع الموجود، والطبقـة الجديـدة هي الناقمـة علي الوضع الموجود، وهي التي فرضت عليها وسائل الانتاج الجديدة أن تري الأوضاع الموجودة معارضة لمصالحها وأن تسعي إلي تغيير البناء الفوقي للمجتمع.

فالتقـدمي في رأي هـذا الاتجـاه هو نصـير تغيير الأوضاع الموجودة وتكامل المجتمع.. والرجعي هوالـذي يطالب بالثبات وبقاء الأوضاع الاجتماعية علي ماهي عليه.

الطبقـة المرفهـة والمنتفعـة من الأوضاع الموجودة هي رجعيـة جامدة الفكر بالضـرورة، لأن محتوي التفكير الاجتماعي للافراد يتكون من خلال مكانتهم الطبقية وظروفهم الاقتصادية، وبنفس السـبب فالطبقة المسـحوقة المستثمرة تقدمية ذات فكر متطور متحرك. وهذه مسألة لا علاقـة لها بالمعلومات وبالثقافة. فالحركة الاجتماعية تبدأ غالباً من الفئات والطبقات ذات المسـتوي العلمي الهابط، لكن هذه الفئات مثقفة لمكانتها الطبقية.

2 – التسلسل المنطقي للتاريخ:

المراحل التاريخية – في المنطق الديالكتيكي – مرتبطة مع بعضها ارتباطاً

ص:44

طبيعياً ومنقطيا. وكل حلقة من حلقات التاريخ لها مكانها المعين الخاص، وليس بالامكان أن تتقدم أوتتأخر.

فالرأسمالية مرحلة تاريخية تتوسط مرحلة الإقطاع والمرحلة الاشتراكية. ومن المستحيل أن ينتقل المجتمع من الإقطاع إلي الاشتراكية دون أن يمر بالمرحلة الرأسمالية، فلا طفرة في مراحل التاريخ كما كان يعتقد الفلاسفة الاقدمون.

فالطفرة في التاريخ تشبه انتقال نطفة الإنسان الي مرحلة الطفولة دون أن تمر في المرحلة الجنينية، وتشبه انتقال الوليد إلي مرحلة الشباب دون أن يمر بمرحلة الطفولة.

من هنا فأصحاب هذا المنطق يطلقون اسم الاشتراكيين المثاليين علي الاشتراكيين الذين أرادوا ان ينطلقوا من إيمانهم بالفكر الاشتراكي إلي تطبيق هذه الاشتراكية دون ان يراعوا جبر التاريخ والتسلسل المنطقي للمراحل التاريخية. كما سموا اشتراكيتهم بالاشتراكية الطوباوية أو الخيالية، خلافاً للاشتراكيين الماركسيين الذين يقيمون فكرهم علي أساس التسلسل المنطقي لحلقات التاريخ.

3 - ذروة كل مرحلة:

ليس من الضروري أن يمر التاريخ في مراحله المتوالية المرسومة دون طفرة فحسب، بل من الضروري أيضا أن تبلغ كل مرحلة من المراحل إلي ذروة كمالها لتتبدل الي مرحلة جديدة أخري، ولتستمر المسيرة التكاملية.

لابد لمرحلة الاقطاع - مثلا - أن تطوي مسيرتها بالتدريج لتبلغ

مرحلـة تاريخيـة معينـة يحـدث فيها التغيير. وانتظار أية مرحلة مقبلة من مراحل التاريخ دون ان تبلغ المرحلة الراهنة ذروتها كانتظار الولادة قبل أن تطوي النطفة مراحلها الجنينية. وولادة مثل هذه – إن تمّت – فهي إجهاض وليست ولادة سليمة.

4 – قدسية النضال:

لما كان الصـراع بين القديم والجديد شـرطاً أساسـياً لانتقال التاريخ من مرحلة إلي مرحلة اخري، وركنا ضرورياً من أركان تكامل المجتمع البشري، فالصراع بين القديم والجديد هونضال مقدس مهما كان لونه.

فالقديم يستحق الفناء لا لكونه معتدياً.. بل لأنه قديم.. ولأن زواله يدفع بالمجتمع نحو التكامل. من هنا فقدسية النضال لا تنطلق من كونها دفاعاً عن حق أو رداً لهجوم.

5 – إثارة الفوضي:

نضال الجديـد للقـديم ليس وحده هو المشـروع والمقدس بل كل تحرك يمهد للثورة ويدفع بعجلة التكامل مشـروع ومقدس أيضا، كإثارة الاضطرابات من أجل خلق الاستياء وتعميق الفجوات وتصعيد النضال.

فالتكامل – كما ذكرنا – هو أن ينقلب الضد إلي ضده في حركة ثورية سريعة. وطريق هذا التغيير هوالصراع الداخلي للتناقضات.

ولا يمكن لهذا التغيير أن يتم دون أن يصل عمق الفجوات وشدة الصراع إلي أعلي مرحلة من مراحل تكامله.

وكل ما من شأنه أن يوسع الثغور يعمل علي الإسراع في تغيير المجتمع

ص:46

من مرحلة إلي مرحلة أسـمي. ولما كانت عملية إثارة الفوضي والاضطرابات تستطيع أن تنهض بهذا الدور، فهي مشروعة ومقدسة طبقاً لهذا المنطق.

6 – الإصلاحات:

من جهـة أخري، الإصـلاحات الجانبيـة والخطوات الرامية إلي تسـكين آلام المجتمع هي خيانة وتخدير ووقوف بوجه التكامل وانخراط في جبهة أعداء التطوير، إذ إن مثل هذه الإصلاحات والخطوات تقلّل من الفجوات ولو بشكل موقت. وتخفض حدة التناقضات. وهذا ما يؤدي إلي تأخير موعد انفجار الثورة.. وتأخير هذا الموعد يعادل زيادة مدة بقاء المجتمع في مرحلة معينة وتأخير موعد التغيير والتكامل.

هذه هي أهم نتائج الاتجاه الديالكتيكي أو الآلي لتفسير التاريخ.

الطريقة الانسانية أو الفطرية

الطريقة الانسانية أو الفطرية لتفسير التاريخ تقف في النقطة المقابلة للتفسير الآلي.

هذه الطريقة تمنح الإنسان والقيم الإنسانية أصالة سواء علي مستوي الفرد أم علي مستوي المجتمع.

هـذه الطريقـة تنظر إلي الكائن الانساني – في إطار علم النفس – بأنه مكوّن من مجموعـة غرائز مادية يشترك فيها سائر الحيوانات، ومجموعة من الغرائز السامية التي تميزه عن غيره من الحيوانات كالغريزة الدينية

والغريزة الأخلاقية وغريزة البحث عن الحقيقة (حب التطلع) والغريزة الجمالية.

وفي الإطـار الفلسـفي، تنظر هـذه الطريقـة إلي المجتمع (من حيث ارتباط أجزائه وأفراده) بأنه تركيب حقيقي، كما تنظر إلي المجتمع (من حيث خصاله) بأنه مجموعة من الخصال الدانية والسامية للأفراد إضافة إلي مجموعة خصال باقية مستمرة في المجتمع.

هذه الخصال الباقية المستمرة تتحكم في المجتمعات دون أن تتأثر بفناء الأفراد.

مسـيرة التاريخ – انطلاقا من هذه النظرة – متحولة متكاملة كالطبيعة ذاتها، والحركة باتجاه الكمال ضـرورة لا تنفصل عن ذات أجزاء الطبيعة بما فيها التاريخ.

تحول التاريـخ وتكـامله لاـ يقتصـر علي الجـانب الفني والآـلي.. أي لا يقتصـر علي الجانب المـدني، بل إنه يعم ويشـمل جميع الشؤون المعنوية والثقافية للانسان، ويتجه نحو تحرير الإنسان من القيود البيئية والاجتماعية.

والإنسـان بفعـل تكـامله الشامـل يتحرر تـدريجياً من ارتبـاطه بـبيئته الطبيعيـة والاجتماعيـة ويتجه نحـو توثيق ارتبـاطه بالعقيـدة والإيمـان والايديولوجية، وسيصل في المستقبل إلي الحرية المعنوية التامة المتمثلة في الارتباط التام بالعقيدة والايمان والمدرسة الفكرية.

الإنسان في الماضي كان أسيراً وعبداً لقوي الطبيعة علي الرغم من قلّة

ص:48

تمتعه بمواهبها، والإنسان في المستقبل سيتحرر من قيود الطبيعة وستزداد سيطرته عليها في نفس الوقت الذي سيزداد استثماره للطبيعة إلي أقصي حد ممكن.

لا ينبغي تفسير التكامل بآلات الانتاج، ولا ينبغي اتخاذ المعلول مكان العلة. تكامل وسائل الإنتاج هو بدوره معلول اندفاع الإنسان الفطري نحو الكمال والتنويع والاستزادة، وناتج عن قوة الابتكار لدي الافراد.

هذه القوة وذاك الاندفاع يتّسعان باستمرار جنباً إلي جنب في جميع جوانب الحياة الإنسانية.

وهذه الطريقة تري أن من خصائص الإنسان انطواؤه علي صراع داخلي بين الجانب الارضي أو الترابي، والجانب السماوي المتعالي.. أي بين الغرائز الهابطة ذات الهدف الفردي المحدود الموقت، والغرائز السامية التي تتجاوز حدود الفردية وتتسع لجميع البشرية وتستهدف تحقيق القيم الخلقية والدينية والعلمية والعقلية.. هذا الصراع أطلق عليه القدماء اسم النزاع بين العقل والنفس.

هذا الصراع الداخلي في نفس الإنسان سينجر إلي صراع بين المجموعات البشرية، ويتخذ صورة حرب بين الإنسان المتكامل المتحرر روحياً، والانسان المنحط المغلول بقيود حيوانية.

هذا الاتجاه الفكري يقبل مبدأ الصراع الاجتماعي ويؤمن بدور هذا الصراع في تغيير التاريخ وتكامله. لكنه يرفض أن يكون هذا الصراع طبقياً دائراً بين الفئة المرتبطة بوسائل الإنتاج والنظم

الاجتماعية القديمة، وبين الفئة المرتبطة بوسائل الانتاج الجديدة.

فالصـراع الذي يؤمن به هذا الاتجاه الفكري ويؤمن بدوره في تطوير التاريخ هو الصـراع بين الافراد الملتزمين المؤمنين الهادفين المتحررين من قيودالطبيعة والغرائز الحيوانية، والأفراد المنحطين المتسافلين الراسفين في أغلال الشهوات الهابطة.

وقـائع التاريـخ تشـهد أن كثيراً من الثورات التي قامت من أجل تأمين الاحتياجات الماديـة للمجتمع تصـدّر قيادتها، أو دعَمَهَا علي الأقل، رجال متحررون من قيود الشهوات الهابطة.

وبين الطريقتين (الآلية والإنسانية) اختلاف في تفسير طبيعة الثورات والنهضات.

الطريقـة الآليـة: تري أن تكامل وسائل الانتاج يخلق طبقـة محرومـة تنهض بالثورات من أجل تأمين احتياجاتها المادية، فتعمد هذه الطبقة إلي تغيير الانظمـة والقوانين الموجودة وتسـتبدلها بأنظمـة وقوانين جديـدة.. وتـدّعي أيضا: أن المحتوي الـداخلي لأي إنسان يعكس مكانته الطبقية، والطبقة الحاكمة تسعي دوماً إلي حفظ النظام القائم وصيانته.

أما الطريقـة الانسانيـة: فتقـدم أمثلة تاريخية للثورات التي لم تقتصـر علي الطبقة المحرومة، بل نهض فيها افراد نشأوا في الطبقات المرفهة، ووقفوا بوجه النظام الحاكم بقوة وبسألة كنهضات ابراهيم وموسـي ومحمد والحسين بن علي. ولم تكن أهداف الثوار مادية دوماً، وخير دليل علي ذلك ما شهده التاريخ الإسلامي من نهضات في سبيل الله، وخاصة

في عصر صدر الإسلام، فيصف علي بن أبي طالب – عليه السلام – الرعيل الأول من المسلمين المجاهدين فيقول:

«حملوا بصائرهم علي أسيافهم» (نهج البلاغة، الخطبة 148).

والثورات والنهضات لم تكن دوماً مرافقة لتطور وسائل الانتاج، كالنهضات التي شهدها الشرق والغرب خلال القرون الأخيرة من أجل مقارعة الاستبداد والطغيان.. فأي تطوير لوسائل الانتاج حدث في إيران – مثلا – إبان النهضة الدستورية؟!

ولم تكن الفوضي الاجتماعية دوماً وليدة نقص القوانين الموجودة.. بل كانت أحيانا وليدة عدم تنفيذ القوانين النظرية المقبولة، فانطلقت الحركات الاجتماعية من أجل تطبيق هذه القوانين وتنفيذها عملياً، كحركات الشعوبية وثورات العلويين في التاريخ الإسلامي.

وأخيراً.. فالإنسان ليس بالموجود الذي لا يملك أية قدرة في التحكم بنفسه، وليس بالكائن المدفوع دوماً بدوافع غرائزه المادية ومصالحه الذاتية الآنية.

نتائج الاتجاه الانساني أو الفطري لتفسير التاريخ

1 – المعارك الرابحة:

معارك التاريخ اتخذت أشكالا وماهيات مختلفة وانطلقت من علل وأسباب متباينة، لكن المعارك التقدمية التي دفعت بعجلة التاريخ والانسانية علي سلّم الارتقاء هي المعارك التي دارت رحاها بين الإنسان العقائدي الملتزم المؤمن المتسامي والانسان العابث المنحط المغلول

بقيود شهواته الحيوانية والبعيد عن خط الالتزام والهدف والتعقل.

المعارك التقدمية التكاملية ليست بذات صفة طبقية وليست بالمجابهة بين القديم والجديد بالمفهوم الذي ينص عليه الاتجاه الآلي.

المعارك البشرية تتجه علي مرّ التاريخ بالتدريج نحو اتخاذ صفة ايديولوجية، ويتجه الإنسان بالتدريج نحو التكامل في قيمه الانسانية، أي يقترب من الإنسان المثالي ومن المجتمع المثالي.

ستكون نهاية المسيرة الانسانية إقامة حكومة العدل وحكومة سيادة القيم الانسانية، أو بالتعبير الإسلامي: «حكومة المهدي».

كما ستزول حكومة قوي الباطل والطغيان والضلال المنساقة بدوافعها الحيوانية والانانية.

2 – حلقات التاريخ:

التسلسل المنطقي لحلقات التاريخ ليس له أساس من الصحة كما يصوره أصحاب التفسير الآلي. وقائع التاريخ عامة وما شهده القرن الماضي خاصة تؤكد زيف هذه النظرية.

في القرن الماضي اتجهت بلدان إلي الاشتراكية دون أن تطوي المرحلة الرأسمالية نظيرالاتحاد السوفيتي والصين وبلدان أوربا الشرقية. ومن جهة أخري ثمة بلدان بلغت فيها الرأسمالية ذروتها كالولايات المتحدة وبريطانيا، لكنها بقيت في هذه المرحلة دون تغيير أو انتقال، وثبت خطأ كل التوقعات التي أعرب عنها زعماء الاتجاه الآلي حين أكدوا علي قرب اندلاع الثورة العمالية في البلدان الصناعية كبريطانيا وفرنسا.

أحداث التاريخ أوضحت زيف ادعاءات الجبر وأثبتت إمكان وصول طبقة البروليتاريا إلي درجة معينة من الرفاه بحيث لم تعد تخامرها فكرة الثورة. كما أثبتت إمكان انتقال مجتمع من الحالة البدوية إلي أسمي مراحل الحضارة الانسانية علي أثر انبثاق ايديولوجية معينة وانتشار إيمان ديني بين أفراد المجتمع كما حدث في صدر الاسلام.

3 – قدسية النضال

مشروعية النضال وقداسته لا تنحصر في إطار الوقوف بوجه الاعتداء علي الحقوق الفردية والوطنية، بل إن إطار هذه المشروعية والقداسة يتسع لكل نضال يستهدف الدفاع عن إحدي المقدسات البشرية المهددة بالخطر.

فالنضال مشروع متي ما تعرض حق لخطر، خاصة إذا كان ذلك الحق يتعلق بالمجتمع الانساني، كالنضال من اجل التحرير، ومن أجل انقاذ المستضعفين – علي حد التعبير القرآني – كما أن النضال علي طريق التوحيد مشروع متي ما تعرض التوحيد للخطر – أياً كان هذا الخطر – إذ إنه أهم مقومات سعادة البشرية.

4 – الإصلاحات:

الإصلاحات الجانبية والتدريجية لا يمكن إدانتها بأي شكل من الأشكال. فالتاريخ لا يطوي مسيرته عبر الأضداد ومن هنا فالإصلاحات الجانبية والتدريجية لا تمنع مسيرته التكاملية ولا تقف بوجه انفجار أحداثه.

ص:53

الإصـلاحات الجانبيـة التدريجيـة تساهم بـدروها في دعم الحق خلال صـراعه مع الباطل، كما تساعد في دفع مسـيرة التاريخ لصالح دعاة الحق.

ومقابل ذلك، فأعمال الفسق والفجور تساعد قوي العدوان، وتعيق حركة التاريخ لما فيه ضرر أصحاب الحق.

تطور الاحداث – بناء علي هذا التصور – هو كنضج الفاكهة علي غصن الشجرة، لاكانفجار القدر الكاتم كما في التصور الآلي.

فالشجرة تعطي فاكهة أفضل وأسلم، وربما أسرع، لو اهتممنا برعايتها وسقيها وكافحنا آفاتها.

5 – إثارة الفوضي

الدليل علي شـرعية الإصـلاحات الجزئية التدريجية هو ذاته الدليل علي عدم شرعية أعمال التخريب وإثارة الفوضي والاضطرابات من أجل خلق الازمات والضائقات، بخلاف النظرية الآلية التي تضفي صفة الشرعية علي مثل هذه الاعمال.

6 – تأرجح منحني التاريخ:

المسـيرة التاريخية في خطها الكلي العام تتجه نحو التكامل، إلا أن هذا الخط المتصاعد لا يسير سيراً تكاملياً جبرياً في جميع نقاطه، فليس من الضـروري حتما أن يكون المجتمع في مرحلـة معينـة من تاريخه أكثر تكاملا من مرحلته التاريخيـة السابقة، لان العامل الاساسـي في حركة التاريخ هو الإنسان، والانسان موجود مختار وذو إرادة حرة.

منحني المسيرة البشرية يتأرجح بين الهبوط والارتفاع، وبين السرعة

ص:54

والبطء والسكون أحيانا. وتاريخ الحضارات البشرية ليس سوي سلسلة من حالات الازدهار والهبوط والسقوط والانقراض وكما يقول «تويمبي» انحطاط الحضارات أمر لا يمكن رفضه لكن تاريخ البشرية يطوي بمجموعه مسيرة تكاملية.

7 – التحرر من أغلال الطبيعة:

المسيرة التكاملية للبشرية تتجه نحو التحرر من أغلال الطبيعة المادية والظروف الاقتصادية والمصالح الفردية والجماعية لتتخذ طابع الالتزام والايمان الفكري.

إرادة الإنسان الابتدائي كانت محدودة غالباً بتأثيرات بيئته الطبيعية والاجتماعية وغرائزه الحيوانية، لكن إرادة الإنسان المتطور تحررت بالتدريج من أسر البيئة والغرائز الحيوانية، بل وأضحت تتحكم في عوامل البيئة والغرائز تبعا لتكامل ثقافة الإنسان واتساع آفاقه وازدياد التزامه بالايديولوجيات التقدمية.

8 – ماهية الجهاد:

حركة الجهاد والامر بالمعروف لها ماهية إنسانية لا طبقية.

9 – أصالة القوي الفكرية والاخلاقية:

قوة الإقناع الفكري، أي قوة الاستدلال والبرهان، لها أصالتها في الموجود الإنساني، وبعبارة أخري: الضمير البشري – سواء من الناحية الفكرية، أو من حيث النزوع نحو السمو الانساني – قوة أصيلة تتحكم أحياناً في المتطلبات المادية.

10 – المثلث الهيغلي:

مثلث الديالكتيك (الأطروحة والطباق والتركيب) بشكله الهيغلي الماركسي لا ينطبق علي التاريخ ولا علي الطبيعة.

حلقات التاريخ ليست سلسلة من الأضداد المنبثقة بعضها من بعض. كما أن الطبيعة لا تسير عبر هذا المثلث.

هـذا المثلث يقوم علي أساس تبـدلين وتركيب واحـد، أي تبـدل الشـيء إلي ضـده، وهذا الضد إلي ضده، ثم يحدث التركيب في المرحلة الثالثة.

ومـا يحـدث في الطبيعـة إمـا أن يكون تركيباً للأضـداد دونما تبـدل، أو تبـدلا للأضـداد دونما تركيب، أو أن يكون تكاملا خالياً من تركيب الأضداد وتبدلها.

فتفاعل الاوكسجين والهيدروجين تركيب ليس فيه تبدل، أي لم يتبدل احد العنصرين إلي العنصر الآخر..

ويحـدث أحيانا أن تتـدخل الطبيعـة في إيجاد حالـة تعادل بين ظاهرتين متناقضتين. وفي مثل هـذه الحالـة يحـدث تبدل ليس معه تركيب وتكامل.

جـدير بنـا إن نقول للمغرمين بألفـاظ المثلث الهيغلي وبلفظـة الـديالكتيك: إننـا نسـتطيع أن نطلق علي أحـد الموجودين المتفاعلين اسـم «الأطروحة» وعلي الآخر اسم «الطباق»، وكذلك علي حالة التعادل بين الظاهرتين المتناقضتين اسم «التركيب».

كما نسـتطيع أيضا أن نطلق علي كل فكرة تقوم علي أساس الحركـة والتناقض اسم «الفكر الـديالكتيكي» ولو أن هـذا الفكر يفتقـد العنصـر الأساسي الذي امتازت به الماركسية.

ص:56

لكنه ينبغي الالتفات إلي أن اطلاق هذه الألفاظ هو اصطلاحي محض قد تدفعنا اليه رغبة شخصية لا أكثر.

نظريتان لتفسير الإنسان

الطريقتان السابقتان لتفسير الحركة التكاملية للتاريخ ناتجتان عن نظريتين مختلفتين لتفسير الإنسان وهويته الواقعية وملكاته الكامنة.

احـدي النظريتين تري الإنسـان موجوداً مغلولاً بمصالحه الماديـة ومصالحه الاقتصاديـة ومسـيّراً في اتجاه جبري يفرضه عليه تطور وسائل الانتاج.

وكل ما ينطوي عليه الإنسان من مشاعر ورغبات وأحكام وأفكار وقدرة علي الانتخاب إنما هو انعكاس لظروف بيئته الطبيعية والاجتماعية.

الإنسان بموجب هـذه النظرة مرآة لا تسـتطيع أن تعكس سوي ما يحيطها، وليس بمقـدوره أن يقوم بأدني حركـة خلافاً لما تسـمح به ظروف البيئة الطبيعية والاجتماعية.

والنظرة الاخري تري الإنسان موجوداً متمتعاً بخصال إلهيـة ومزوداً بفطرة تـدفعه لأن يطلب الحق وينشده، وقادراً علي التحكم بنفسه وعلي التحرر من جبر الطبيعة والبيئة والغرائز والمصير المحتوم.

والقيم الانسانيـة بموجب هـذه النظرة لها أصالتها في الإنسان، أي ان ثمة نزعات قد أودعت في طبيعة الإنسان، والموجود البشـري بموجب طبيعته الانسانية ينشد القيم الإنسانية السامية، وبعبارة أخري ينشد الحق

والحقيقة والعدالة ومكارم الاخلاق، ويستطيع بموجب قواه التعقلية أن يخطط لبناء مجتمعه وأن لا يستسلم استسلاما أعمي لظروف البيئة، وان ينفذ مشاريعه الفكرية انطلاقا من إرادته وقدرته علي الانتخاب.

دور الوحي هو الموجه والمساعد للانسان، باعتبار أن الوحي هادي البشرية وحامي القيم الانسانية.

الإنسان يتأثر دون شك بظروف بيئته، لكن هذا التفاعل لا يسير باتجاه واحد، بل إن الإنسان يؤثر أيضا علي بيئته.

والمسألة الاساسية في هذا التفاعل هي أن تأثير الإنسان علي البيئة لا يظهر علي شكل ردود فعل جبرية قهرية. فالانسان باعتباره موجوداً واعياً حراً مريداً قادراً علي الانتخاب ومجهزا بخصائص فطرية سامية، يبدي أحيانا ردود فعل تختلف عما يبديه حيوان مسيّر فاقدٌ للوعي من ردود فعل.

الخصلة الرئيسية التي تميز الإنسان عن سائر الموجودات هي قوة سيطرة الإنسان علي نفسه والثورة علي انحرافاته، وكل النقاط المضيئة في تاريخ البشرية نابعة من هذه الخصلة. وهذا الجانب المتسامي من الإنسان منسيّ تماماً في الاتجاه الآلي لتفسير التاريخ.

التفسير القرآني

التفسير القرآني للتاريخ ينطلق دون شك من النظرة الثانية.

القرآن يسرد وقائع التاريخ البشري منذ بداية الخليقة علي أنها صراع مستمر بين قوي الحق وقوي الباطل، بين مجموعة من أمثال ابراهيم

وموسـي وعيسـي ومحمـد – عليهم الصـلاة والسـلام – وأتباعهم المؤمنين، ومجموعـة أخري من أمثال نمرود وفرعون وجبابرة اليهود وأبي سفيان وأمثالهم.

فلكلّ فرعون موسي...

وفي خضم هذا الصراع المستمر ينتصر الحق حيناً والباطل حيناً آخر.

وانتصار أحد الفريقين أو فشله يرتبط طبعاً بمجموعة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية.

تأكيـد القرآن علي تأثير العوامل الاخلاقيـة في مسـيرة التاريـخ صـيّر من التاريـخ مصـدر تعليم مثمر معطاء، ولو نظرنا إلي التاريخ علي أنه مجموعـة صـدف واتفاقات ليس لها علّـة ولا موازين أو ضوابط، لتبـدلت أحـداث التاريخ إلي أساطير لا تصـلح إلا للتسـلية والسـمر وتربية الخيال، دون أن يكون فيها أي عطاء تعليمي.

ولو آمنا بوجود قواعد وموازين للتاريخ دون أن يكون للانسان دور فيه، لأضحي العطاء التعليمي للتاريخ نظرياً فقط لا عملياً.

وسوف نتعلم – في هذه الحالة – من التاريخ نظير ما نتعلمه من حركات الكواكب والمجرات.

وكما أن معلوماتنا عن الكواكب والنجوم لا تساعدنا في تغيير مسـيرها، كذلك معلوماتنا عن التاريخ لا تمنحنا أي دور في تعيين مسير حركة التاريخ.

أما حينما نؤمن بضوابط التاريخ وموازينه وقواعده، وبدور ارادة

الإنسان في تعيين مسير حركة التاريخ وبالدور الاصيل والحاسم للقيم الأخلاقية والانسانية، يصبح التاريخ حينئذ ذا عطاء تعليمي مفيد، والقرآن ينظر إلي التاريخ من هذه النافذة.

القرآن الكريم يتحدث مراراً عن الدور الرجعي الذي يلعبه «الملأ» و «المترفون» و «المستكبرون» علي مسرح التاريخ، كما يتحدث عن دور «المستضعفين».

ويؤكد القرآن في الوقت ذاته علي أن الصراع المستمر بين الفريقين منذ فجر التاريخ ذو هوية معنوية إنسانية لامادية طبقية.

المجتمع المثالي

مسألة نهضة «المهدي» – عليه السلام – قضية اجتماعية فلسفية كبري.

هذه المسألة لها أركانها وعناصرها المختلفة، بعض هذه الاركان والعناصر فلسفي عالمي يشكل جزءاً من التصور الإسلامي، وبعضها ثقافي تربوي، وبعضها سياسي وبعضها اقتصادي، وبعضها اجتماعي وبعضها إنساني أو إنساني – طبيعي ((1)).

لا يسعنا هنا أن ندرس هذه المسألة علي ضوء القرآن والسنة، لذلك نكتفي بذكر خلاصة لخصائص هذه البشري الكبري للكشف عن ماهية «الانتظار الكبير».

1- (1) – القيت ثماني محاضرات في هذا الموضوع عام 1974، أرجو أن اوفق لنشرها بعد اعادة النظر فيها.

أ – التفاؤل بمستقبل البشرية: فحول مستقبل المسيرة البشرية اختلفت الآراء والنظرات. اعتقد بعض المفكرين أن الشر والفساد والتعاسة صفات لا ـ تفارق الحياة البشرية، وذهبوا إلي أن الحياة لا قيمة لها علي الاطلاق، وافضل ما يستطيع أن يقوم به الإنسان هو أن يضع نهاية لهذه الحياة.

وبعض آخر ذهب إلي أن الحياة البشرية بتراء، وقال: إن البشرية تحفر قبرها بيدها بفعل تطورها التكنولوجي وتقدمها في صنع وسائل التخريب والدمار، وهي علي شفا السقوط والانهيار.

يقول «رسل» في «الآمال الجديدة»: «.. ثمة أفراد – منهم أنشتاين – يزعمون أنه من المحتمل جداً أن يكون الإنسان قد طوي دورة حياته، وسيستطيع خلال السنوات القليلة القادمة أن يبيد نفسه بما يتمتع به من مهارة علمية فائقة».

واستناداً إلي هذه النظرية، تواجه البشرية الفناء الآن وهي في ربيع عمرها، وعلي أبواب نضجها الثقافي. وإذا اكتفينا بالشواهد الظاهرية، فإننا لا نستطيع طبعاً أن ننفي هذا الاحتمال.

أما النظرية الثالثة فترفض المقولتين السابقتين، فلا الشر والفساد والتعاسة صفات تلازم البشرية، ولا التطور المدني المادي بقادر علي إبادة البشرية، بل إن البشرية تتجه نحو مستقبل مشرق سعيد تنقلع فيه جذور الظلم والفساد.

هذه النظرية يبشر بها الدين، ونهضة المهدي ترتبط بهذه البشري.

ب – انتصار الحق والتقوي والسلام والعدل والحرية علي الظلم والدجل والاستكبار والاستعباد.

ج – قيام حكومة عالمية واحدة.

د – عمران الارض بحيث لا تبقي بقعة خربة غير عامرة.

ه –– بلوغ البشـرية حـد النضـج والتكامل يلتزم فيه الإنسان طريق العقل والعقيدة، ويتحرر من أغلال الظروف الطبيعية والاجتماعية والغرائز الحيوانية.

و – استثمار ذخائر الارض إلي أقصي حد ممكن.

ز – إحلال المساواة التامة بين البشر في حقل الثروة.

ح – اقتلاع جذور الفساد كالزنا والربا والخيانة والسرقة والقتل وشرب الخمر، وخلو النفوس من العقد والأحقاد.

ط – زوال شبح الحروب وسيادة السلام والحب والتعاون والصفاء.

ي – المواءمة بين الإنسان والطبيعة.

هـذه الأهداف تلقي الضوء علي ماهية مسألة المهدي، وكل واحدة منها تحتاج إلي اسـتدلال وتحليل ودراسة لا يسـعها بحثنا هذا، فنتركها إلي فرصة أخري.

الانتظار الكبير

المستقبل الذي ينبغي أن تعقد عليه الآمال، والذي شاءت الإرادة الالهية أن يسير نظام العالم تجاهه، هو هذا الذي ذكرناه.

والآن ينبغي أن نعود إلي موضوع انتظار الفرج الذي قسمناه في بداية

ص:62

هـذا الحـديث إلي قسـمين: انتظـار بنـاء حركي ملتزم عبـادي، بل من أفضل العبادات، وانتظار مخرب معوّق يبعث علي الخمود والخمول والكسل والتقاعس، ويعتبر نوعا من «الاباحية».

ذكرنا أن هذين اللونين من الانتظار ينطلقان من نوعين من التصور حول الحدث التاريخي العظيم المتمثل بظهور المهدي الموعود.

وهذان التصوران ينتجان بدورهما من نوعين من التصور بشأن تطور التاريخ.

نشرح فيما يلي هذين النوعين من الانتظار ونبدأ بالانتظار المخرب:

الانتظار المخرّب

بعض المؤمنين بظهور المهـدي يتصورون أن نهضـة هذاالمنجي ذات طابع انفجاري محض، وناتجة فقط عن انتشار الظلم والجور والفساد والطغيان، أي إن مسألة الظهور نوع من الاصلاح الناتج عن تصاعد الفساد.

هؤلاء يتصورون أن مسيرة البشرية تتجه إلي انعدام العدل والقسط، والي زوال أنصار الحق والحقيقة، والي استفحال الباطل.

وحينما يصل هـذا الانحـدار إلي نقطـة الصـفر يحدث الانفجار المرتقب، وتمتد يد الغيب لانقاذ الحقيقة – لا أنصار الحقيقة – إذ لن يبقي للحقيقة أنصار آنذاك.

هـذا التصور يـدين كل إصـلاح، لأن الاصـلاح يشـكل نقطـة مضـيئة علي ساحة المجتمع العالمي، ويؤخر الامداد الغيبي كما يعتبر هذا التصور كل

ذنب وتمييز وإجحاف مباحاً لأن مثل هذه الظواهر تمهد للإصلاح العام وتقرّب موعد الانفجار.

هـذا التصور يميل إلي مـذهب الـذرائع الذي يذهب إلي أن الغاية تبرر الوسـيلة فإشاعة الفساد – بناءاً علي هذا التصور – أفضل عامل علي تسريع ظهور المهدي وأحسن شكل لانتظار فرج ظهوره.

أصحاب هذا التصور ينظرون إلي الذنوب نظرة تفاؤل واستبشار ويعتبرونها عاملاً مساعداً علي انطلاق الثورة المقدسة الشاملة.

هؤلاء ينظرون إلي المصلحين والمجاهدين والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر بعين الحقد والعداء.. لأنهم يعملون علي تأخير ظهور المهدي.

أصـحاب هذا التصوبر – إن لـم يكونواهم من زمرة العاصين – ينظرون إلي اصحاب المعاصي بعين الارتياح والرضي لانهم يمهدون لظهور القائم المنتظر!!

تصور شبه ديالكتيكي

الاتجاه المخرب في فهم قضـية ظهور المهدي يشترك مع الاتجاه الديالكتيكي في معارضـته للإصلاحات وفي تأييده لأنواع الظلم والفساد باعتبارها مقدمـة لانفجار مقـدس، مع فارق بين الاتجاهين هو أن الاتجاه الـديالكتيكي يعارض الاصـلاحات ويؤكـد علي ضـرورة تشـديد الفوضي والاضطرابات انطلاقا من هدف مشخص يتمثل في تعميق الفجوات والتناقضات لتصعيد النضال.

لكن هذا التفكير المبتذل في مسألة ظهور المهدي يفتقد هذه النظرة،

ويرتأي زيادة الظلم والفساد من أجل الوصول إلي النتيجة المطلوبة تلقائياً.

هذا اللون من الفهم لمسألة ظهور المهدي وهذا النوع من الانتظار للفرج لا يرتبط علي الاطلاق بالموازين الإسلامية والقرآنية إذ إنه يؤدي إلي التعمد في تعطيل الحدود والاحكام الإسلامية بل إلي نوع من الاباحية.

الانتظار البنّاء

الآيات الكريمة التي تشكل أرضية التفكير حول ظهور المهدي المنتظر تتجه إلي جهة معاكسة للنظرة السابقة.

هذه الآيات تشير إلي أن ظهور المهدي حلقة من حلقات النضال بين أهل الحق وأهل الباطل، وأن هذا النضال سيسفر عن انتصار قوي الحق. وتتوقف مساهمة الفرد في تحقيق هذا الانتصار علي انتمائه العملي إلي فريق أهل الحق.

هذه الآيات التي تستند إليها الروايات في مسألة ظهور المهدي تشير إلي أن المهدي تجسيد لآمال المؤمنين العاملين، ومظهر لحتمية انتصار فريق المؤمنين: وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (النور: 55).

ص:65

ظهور المهدي الموعود تحقيق لمنة الله علي المستضعفين ووسيلة لاستخلافهم في الارض ووراثتهم لها:

وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَي الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (القصص: 5).

ظهور المهدي الموعود تحقيق لما وعدالله به المؤمنين والصالحين والمتقين في الكتب السماوية المقدسة:

وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُونَ (الانبياء: 105).

ثمة حديث معروف في هذا المجال يذكر أن المهدي

«يملأ الله به الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً».

هذا الحديث شاهد علي ماذهبنا اليه في مسألة الظهور لا علي ادعاء ارباب الانتظار المخرب.

هـذا الحـديث يركز علي مسألة الظلم ويشـير إلي وجود فئة ظالمة وفئة مظلومة والي أن المهدي يظهر لنصـرة الفئة المظلومة التي تسـتحق الحماية.

ولو كان الحديث يقول إن المهدي يملأ الله به الارض إيمانا وتوحيداً وصـلاحاً بعدما ملئت كفراً وشـركاً وفساداً لكان معني ذلك أن نهضـة المهدي الموعود تستهدف إنقاذ الحق المسحوق لا إنقاذ انصار الحق، وإن كان هؤلاء الانصار أقلية.

يروي الشيخ الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام.

«إن ظهور المهدي لا يتحقق حتي يشقي من شقي ويسعد من سعد».

الحديث عن الظهور يدور حول بلوغ كل شقي وكل سعيد مداه في العمل، ولا يدور حول بلوغ الاشقياء فقط منتهي درجتهم في الشقاوة.

وتتحدث الروايات الإسلامية عن نخبة من المؤمنين يلتحقون بالامام فور ظهوره.

ومن الطبيعي أن هـذه النخبـة لا تظهر معلقـة في الهواء بل لابـد من وجود أرضـية صالحـة تربي هـذه النخبـة علي الرغم من انتشار الظلم والفسـاد. وهـذا يعني أن الظهور لا يقترن بزوال الحق والحقيقـة، بل أهل الحق – حتي ولو قلّوا فرضاً – يتمتعون بكيفيـة عاليـة تجعلهم في مصافي المؤمنين الاخيار، وفي مرتبة أنصار الحسين بن علي – عليه السلام.

الروايـات الإسـلامية تتحـدث أيضـا عن سلسـلة من النهضـات يقوم بهـا أنصار الحق قبل ظهور المهـدي، منها نهضـة اليماني. مثل هـذه النهضات لا يمكن أن تبتدئ بساكن، ولا تظهر دون أرضية مسبقة –.

بعض الروايـات تتحـدث عن قيـام دولـة أهل الحق التي تسـتمر حتي ظهور المهـدي.. حتي أن بعض العلماء أحسـنوا الظن بدولـة بعض السلالات الحاكمة، فظنوها أنها الدولة التي ستحكم حتي ظهور المهدي.

هـذا الظن – وان كان ينطلق من سذاجـة في فهم الوقائع السياسـية والاجتماعيـة – يدل علي اسـتنباط هؤلاء العلماء من الروايات والاخبار المتعلقـة بظهور المهـدي مـا يشـير إلي أن الظهور لايقترن بفناء الجناح المناصـر للحق والعـدل والايمان، بل يقترن بانتصار جناح العـدل والتقوي والصلاح علي جناح الظلم والتحلل والفساد.

ص:67

الآيات والروايات المرتبطة بظهور المهدي المنتظر تدل علي أن ظهوره يشكل آخر حلقة من حلقات الصراع الطويل بين انصار الحق وانصار الباطل منذ بدء الخليقة.

المهدي المنتظر تجسيد لأهداف الانبياء والصالحين والمجاهدين علي طريق الحق.

ص:68

الفصل الثالث: الامداد الغيبي في حياة البشرية

اشارة

ص:69

الامداد الغيبي في حياة البشرية *

(1)

عنوان بحثنا – كما علمتموه من خلال بطاقات الدعوة – هو «الإمداد الغيبي في حياة البشرية».

لقد كنت علي علم بأن هذا العنوان الذي اتخذته لبحثي هذا اليوم سيثير استغراباً وتشكيكاً عندما يظن بعض السذج أني سأطرح موضوعاً عن تسخير الجن أو حل الطلاسم أو غيرها من الموضوعات الخرافية.

ومن المؤكد أن نفرا عند سماعه عنوان «الامداد الغيبي» سوف يرفع عقيرته قائلا: نحن في عصر العلم والتجربة والفضاء، وكل شيء قد خضع اليوم لسيطرة حواس الإنسان!! فما هو دور الإمداد الغيبي في هذا العصر؟! عصر النور، حيث أضحي البحث عن الغيب وماوراء الطبيعة دون معني ولا طائل تحته!!

نعم، كنت أعي كل هذه الملاحظات، عندما عمدت إلي انتخاب هذا العنوان الذي طالما أثار تساؤلا واستنكاراً، وإنما اخترته لأنه سيثير انتباها أكثر إلي ما سيطرح في هذا البحث.

ص:71

1- (1) *- ترجمة محاضرة ألقاها الاستاذ يوم 15 شعبان سنة 1398 ه -.

ينبغي أن أذكر أولا، أن المسألة عكس ما يثار حولها عادة من ظنون وشكوك.

إن هذا الإنكار والإعراض، والادعاء بأن الحديث عن الغيب لا يجد مكاناً في عصر العلم، هو مخالف للعلم وللروح العلمية تماماً.

إنه جهل بل مرحلة دون مرحلة الجهل!!

وهل هناك مرحلة تتسافل عن مرحلة الجهل؟!

نعم، إنها الجمود..

علي الصعيد المالي والاقتصادي هناك ماهو دون الفقر، إنه الغرور، والاتكال علي مافي اليد، أي حينما يفكر الفرد بأن ما عنده يغنيه عن السعي والفكر، فإن هذا أشد مأساة من الفقر وأكثر خطراً منه.

الجهل قبيح لأنه عدم وفقدان علم. ولكن، كم من جاهل سعي لينهل من العلم ما يوصله إلي مستوي العلماء!!.. وكم من عالم ركبه الغرور، وخال أنه استوعب العلم بكل أطرافه، فراح يعلن عن كبريائه وخيلائه ليملأ الدنيا جهلا وظلاما!!

إن علم البشر لاثقل له في ميزان حقيقة هذا الكون وهو ضئيل بالنسبة إلي كل ما ينطوي عليه الوجود من علوم وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً.

إن العالم حقاً هو الذي لا يقبل شيئاً دونما دليل ولا ينكر شيئاً أيضا من غير دليل.

ليس الجامد والمغرور بالعالم، وهكذا الذي يقبل وينكر دونما دليل. إنه

أقرب إلي خزانـة من المعلومات والصـيغ، قد اختزن كل ما أعطي، دون أن يكون له وعي ومقياس في الرد والقبول. وبعبارة أخري، فهو فاقد للروح العلمية.

إذا التقيتم بشخص يحمل شهادات دراسية في ألوان الفنون والعلوم، ولكنه يقبل ويرد دونما دليل وبرهان، فاعلموا أنه ليس بعالم حقيقي.

ليس من خصـائص العلم أن يبعث في نفس حـامله الغرور، بل العلم يبعث البشـرية علي أن تخضع للحقائق، وتسـلم بها، ويجعلها تتخذ موقف الدقة والحذر في الرد والقبول.

الجمود الأـدني والأحـط من الجهـل، هو الروح المخالفـة للدقـة والتحقيق. وهو الـذي يسـلب من البشـر الانـدفاع المقـدس نحو البحث والتعمق.

وطالما كان الجمود أقبـح من الجهل، فإن روح البحث والتحقيق أسـمي من العلم نفسه. العلم يبعث علي التقديس والاحترام حينما تؤازره روح البحث العلمي. وهذه الروح تبدأ من نقطة يحس معها الإنسان بنقص معلوماته ومعارفه.

ومن طريف مـا قيل، ان العلم له ثلاث مراحل، فما إن يلـج الإنسان مرحلته الأولي حتي يركبه الغرور وتعتريه الكبرياء، ويخال أنه يعلم كل شيء. وحينما يصل إلي المرحلـة الثانيـة تظهر عليه سـيماء التواضع لأنه يري ضآلة ما يعلمه بالنسـبة لما يجهله. لكنه حينما يصل المرحلة الثالثة يدرك أنه لا يعلم شيئاً، ويصبح من الواضح عنده أنه لم يتضح له شيء بعد.

أنشتاين – وهو أجل علماء الرياضيات والطبيعيات في عصرنا بلا منازع – يقول في مقدمة الخلاصة الفلسفية لنظريته النسبية:

إن الإنسان بعد توغله في الفيزياء الحديثة يستطيع أن يدعي بأنه اطلع علي الحروف الابجدية لكتاب الطبيعة لا أكثر.

أي إن الإنسان في تعرفه علي حقائق الكون كطفل قد طوي لتوّه مرحلة تعلم حروف الكتابة فحسب، وما أطول المدة التي يحتاجها هذا الطفل كي يستطيع أن يقرأ الكتب العلمية المدونة بتلك الحروف!!

أنا لا أريد اليوم أن أفرض عليكم مقولتي، بل الذي أريده هو أن أتخذ موقف المتحدث الديني في هذا المقر العلمي، لأقوم بالدور الذي نهض به الدين إزاء العلم، عندما كان الدين هادياً للعلم نحو الدقة والتحقيق.

يقول وليم جيمس: إن الدين يحدثنا عن أمور يستحيل علي العقل والعلم ادراكها ابتداءاً. لكن هذه الرموز – التي حدثنا عنها – دفعت العقل إلي أن يبحث ويحقق ومن ثمّ توصل إلي نتائج باهرة.

العلماء يجمعون علي أن الدين كان المحرك الأول لكثير من المسائل العلمية التي توصلت إليها البشرية اليوم.

ماهو الغيب؟

الغيب يعني الخفاء، ماوراء الستار، أي هو الشيء الذي غاب عن حواسنا، وخرج عن دائرة الإدارك الحسي.

وردت كلمة الغيب مراراً في القرآن الكريم، فتارة ذُكرت وحدها، كما

في قوله تعالي: الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاّ هُوَ....

الفلاسفة المسلمون استفادوا من هذا التعبير القرآني فسموا الطبيعة المادية «الشهادة» واصطلحوا علي عالم الملكوت بعالم «الغيب».

الادب العرفاني الفارسي تحدث عن عالم الغيب، بتعبيرات دقيقة رائعة نجدها منتشرة في أشعار حافظ والخيام والمولوي وسعدي.

الإيمان بعالم الشـهادة لا يتطلب أكثر من الحواس. وتسمية هذا العالم بعالم الشهادة تنطلق من كون هذا العالم محسوساً ملموساً. من هنا لا نحتاج إلي مرشـد يوجهنا للإيمان بهـذا العالم، بل نحتاج إلي مُعلم يهـدينا سـبل البحث والتحقيق لنتعرف أكثر فأكثر علي حقائق عالم الشهادة.

غير أن هـذه الحواس قاصـرة عن الإيمان بعالم الغيب. وهنا تبـدأ وظيفـة العقل – وهو المرحلـة الغيبيـة من وجودنا – في إدراك هذا العالم المجهول، بل لعل الاطلاع علي هذا العالم يتطلب قوة ادراك أكثر خفاء من العقل.

الأنبياء هداة وأدلاء علي عالم الغيب، بعثوا لكي يدعوا الناس للإيمان بهذا العالم وبما وراء الحس الظاهر، وليكونوا حلقة اتصال، وليوصـلوا الناس إلي المدد الغيبي في الاحوال والظروف الخاصة.

لم يكتف الأنبياء بـدعوة الناس إلي الإيمان بوجود الغيب، بل عملوا علي إيجاد رباط بينهم وبين ذلك العالم.. وهنا تبدأ العلاقة العملية بين الحياة البشرية وبين الغيب.

ستار الغيب

ذكرنا أن الغيب يعني الخفاء.. ماوراء الستار.

فما هو هذا الستار الذي حال بيننا وبين الرؤية؟

هل هو في الواقع ستار ينبغي أن يزاح كي نستطيع أن نري وندرك؟

أم هو كناية عن حقائق أخري؟

لقد ورد ما يرادف كلمة السـتار في القرآن الكريم عند حديثه عن أهل القيامة: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق: 22).

وفي حديث لامير المؤمنين علي (عليه السلام) قال:

«لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا».

إن هذا الغطاء ليس جسما مادياً طبعاً، إنه التعبير عن الإطار الذي تتحدد به حواسنا في إدراكها.

محدود وغير محدود

إن الموجودات تنقسم – بحسب التقسيم العقلي – إلي محدودة وغير محدودة. وحينما تُعرف المحدودات فإن غيرها سيتضح تلقائياً.

إنكم تجلسون الآـن في مكـان معين، وتشـغلون حيزاً محـدوداً من الفراغ. وإن أردتم الجلوس في مكـان آخر يلزمكم ترك المكـان الأـول لتتحركوا إلي المكان الثاني.

أي إنكم لا تستطيعون إشغال المكانين في آن واحد، فأنتم من ناحية المكان محدودون – إذن – بمكان معين.

وهكذا من ناحية الزمان، فنحن موجودون في الزمن الحاضر، وغير موجودين في زمن مضي، ولا في زمن لم يأت بعد.

أما لو تسني لموجود أن يكون غير محدود في زمان أو مكان، أي أن لا يخلو منه زمان ولا مكان، بل هو في كل زمان ومكان، ومهيمن علي الزمان والمكان، عند ذاك تعجز حواسنا عن إدراك هذا الموجود.

نحن نستطيع أن نري الموجود حينما يكون محدوداً ومستقراً في جهة معينة، وله شكل معين، ويمكن أن يشار اليه. أما إذا لم يكن محدودا، وليس له شكل أو جهة، فتستحيل علينا رؤيته.

نحن نستطيع أن نسمع صوتاً حينما يكون موجوداً حيناً، وغير موجود حيناً آخر. أما إذا امتد الصوت في دويّ واحد، واستمر دونما انقطاع في وصوله إلي أذننا، فلا نستطيع سماعه إطلاقاً.

يقول الغزالي: نحن نستطيع أن نعرف النور لأنه موجود تارة، وغائب تارة أخري، ولأنه مرئي في مكان ومفقود في مكان آخر. ولو قُدر للعالم أن يكون مضيئاً باستمرار وبشكل واحد، وليس ثم ظل ولا ظلام، ولا غروب ولا أفول، لجهلنا – عند ذاك – معني النور الذي هو أظهر الأشياء، بل المُظهِر لكل الأشياء الأخري.

إننا نعرف النور – إذن – بنقيضه، وهو الظلمة. وعن طرق هذا النقيض نسلّم بوجوده.

يقول المتصوفة والعرفاء: إن الله قد اختفي لشدة ظهوره، فهو قد خفي لأنه لا يغيب، ولا يخلو منه زمان ومكان.

يا من هو اختفي لفرط نوره الظاهر الباطن في ظهوره

الشاعر الفارسي يمثل لهذه المسألة بأسلوب جميل فيقول:

كانت هناك سمكة تسبح في البحر

وكانت مثلي ذات ادراك ضيق الأفق

لم تعان يوماً أذي من صياد

ولا عدمَ ارتياح من شباك الصيد

لم تحس يوماً بعطش.. ولا بحرارة شمس

لقد وعت يوما علي صوت أناس..

ينادون: واعطشاه! أين الماء؟

رجعت السمكة إلي نفسها تفكر في هذا الماء

ما هذا الاكسير الذي يحيي كل شيء؟!

إذا كان هو أساس الحياة..

فَلِمَ يا ربِّ قد حجبته عنّي؟!

***

لم يكن يتجلّي أمام ناظريها صباح مساء سوي الماء..

إنها كانت تعيش بكنفه باطمئنان، ولكنها كانت تجهله..

كانت غافلة عن النعمة التي تعيش في أحضانها،

إلي أن ألقاها الموج إلي ساحل البحر..

وحينذاك غمرت جسمها أشعة الشمس المحرقة

وأضرم بُعد الماءِ في أحشائها ناراً

لقد جفّ فمها من شدة العطش

وتذكّرت الماء وهي مستلقية في التراب

وسمعت من بعيد خرير الماء

بدأت تضرب بنفسها الأرض وهي تقول:

لقد عثرت الآن علي هذا الإكسير الكيميائي،

الذي لا أستطيع أن أعيش بدونه

أسفا! لقد عرفته بعدما قصرت يدي عن نواله

نعم، إن السـمكة التي تعيش العمر كله في أحضان الماء، ولا تجد في مسيرها وفي كل ما يحيطها سواه لا تستطيع أن تفهمه، والشيء الذي تشك فيه ولا تقدره حق قدره هو الماء نفسه.

إلا أنها عرفته وتمنته حالما انفصلت عنه لحظة ودخلت إلي عالم اليابسة.

هذا التمثيل يستهدف توضيح المسألة التي سبق أن ذكرناها، وهي إن السبب في خفاء الغيب يرتبط بقدرة حواسنا علي الإدراك، لا بوجود مانع وحاجز بينه وبين جهازنا الحسي والإدراكي.

نحن نعلم أن فلاسفة أوروبا المحدثين يدّعون لأنفسهم قصب السبق في البحث حول الإدراك البشري، ويعتبرون بحوثهم في هذا الميدان ابتكاراً.

ولعل الأساس الذي اتخذه بعض كبار فلاسفة أوروبا لبحوثهم هو نقد وسائل الفكر الإنساني. ومن أعظم ما كتبه «كانت» – الفيلسوف الألماني – كتابان حول نقد العقل النظري، ونقد العقل العملي.

لا يهمنا في هـذا البحث التعرف علي مقـدار الابتكار في اتجاه هؤلاء الفلاسـفة. ولا نريـد شـرح أسـبقية العلماء المسـلمين في تناول هذا الاتجاه النقـدي، بل نكتفي بالإشارة إلي أن الفلسـفة الإسـلامية عمـدت إلي هـذا اللون من النقد قبل غيرها. ولكن لا باسم النقد بل تحت عناوين أخري.

لهذا الاتجاه النقدي – في الفلسـفة الإسلامية – عطاء ثرّ قيّم يفوق ما تمخّضت عنه العقول الأوروبية، ولي أمل العودة إلي هذا الموضوع في لقاء آخر كي نبحثه بتفصيل وبرهان.

الشاعر الفارسي – مولوي – يمثل في شعره – قبل مئات السنين – لمحدودية الحس البشري، فيقول:

جاء الهنود بفيل إلي أرض لم تعهد رؤية الفيل من قبل.. ووضعوه في دار مظلمة لا نور فيها.

ودخل الناس واحداً بعد آخر ليلمسوه! وما إن خرجوا حتي بدأ كل منهم يصفه من خلال ما أحسه بلامسته.

فهذا الذي وقعت يده علي الخرطوم قال: إن الفيل يشبه الأنبوب!

وذاك الذي لمس الأذن قال: إنه يشبه مروحة يدوية!

أما الذي استطاع لمس ظهره فوصفه بأنه يشبه السرير!

وما كان من الذي لمس قوائمه إلا أن قال: إنه يشبه الأسطوانة!

***

إن الباصرة قادرة علي أن تري الفيل بضخامته، وبكل أعضائه وأبعاده. أما اللامسة – وخاصة حينما تكون بكف اليد فقط – فلا تستطيع

أن تدرك ذلك. والصدفة هي التي تلعب دورها في مكان وضع كف اليد من الفيل.

اللامسة اذن محدودة بالنسبة إلي الباصرة التي هي غير محدودة نسبياً. وهذه النسبة تصدق في مقارنة الحواس مع القوي العقلية.

عالم الغيب

ما هو الطريق الذي يسلكه العقل ليطلع علي العالم الآخر؟

ماهي الآثار المرئية التي بمقدورها الدلالة علي ذلك العالم؟

هذه المسائل لا يمكن لهذا البحث الموجز أن يستوفيها. ولا بأس بالاشارة إلي أن البحوث العلمية والفلسفية في آخر مراحلها، قد توصلت إلي أن الأصل في كل الأشياء المادية هو الحركة. وسلكت العلوم لإثبات ذلك طريقاً يختلف عن طريق الفلسفة.

إن رأي الفلسفة يرتكز علي التغير الدائم للذرات وجواهر الأشياء. الكون كله – في نظر الفلسفة – ركب متنقل، ولكنه ليس بذاك الركب المتنقل من مكان إلي آخر فحسب، بل إنه في حالة انتقال من وجود إلي وجود آخر باستمرار وبدون انقطاع.

أثبت صدر المتألهين الشيرازي أن جواهر الأجسام في حالة تغير وتبدل. أي إنه أثبت إمكان ما كان يؤمن أرسطو وابن سينا باستحالته. وهو لم يثبت إمكان الحركة الجوهرية فقط، بل اعتبرها ضرورة حتمية.

العالم في نظر هذا الفيلسوف وحدة متحركة باستمرار، وفي حالة حدوث وفناء دائمين.

بناء علي هذا فإن العالم غير قائم بذاته، بل قائم بغيره، وهذه مسألة واضحة لا تحتاج إلي شرح وتفصيل.

من هنا نفهم أن المسألة الأساسية ليست مسألة البحث عن العلة التي أوجدت العالم من العدم في لحظة واحدة معينة، بل إن البحث يتجه إلي أن العالم يولد في كل لحظة من العدم ومن خلفه يد توجده وتفنيه باستمرار، ومن غير انقطاع..

الإمداد الغيبي

لقد أوضحنا فيما مضي: أن كل الموجودات تستمد وجودها من الغيب. وبعبارة أخري فإن الإمداد الغيبي يعم الطبيعة جميعاً ولكننا نريد أن نضيف هنا بأن ثمة مجموعة من الإمدادات الخاصة لها وجود أيضا.

وهل هناك إمداد خاص؟.. نعم.

لكي أستطيع توضيح هذا الموضوع، ينبغي أن أشير أولا ـ إلي مصطلح قرآني وارد في آية البسملة حيث تصف الباري تعالي بالرحمن، والرحيم.

وكلتا الكلمتين مشتقتان من الرحمة مع تفاوت بينهما.

الرحمة «الرحمانية» تشمل كل الموجودات، إذ إن وجود كل الأشياء، وديمومتها وبقاءها مدين لهذه الرحمة.

أما الرحمة «الرحيمية» فهي اللطف والعناية الخاصة التي ينالها الموجود المكلف علي أثر أداء الوظيفة المنوطة إليه، وهي عناية خاصة لها قانونها الخاص، غير قانون الطبيعة. لقد جاء الأنبياء ليرشدونا إلي هذا النوع من الإمداد الغيبي. وإذا استقرت أنفسنا علي الإيمان بهذا الامداد، فسندخل في

علاقة مباشرة مع رب العالمين. نحس بأننا أمام جزاء عادل لكل أعمالنا خيراً كانت أم شراً.

وعلي أية حال ينال الإنسان أحياناً في حياته الفردية والاجتماعية نوعاً من الرحمة تنجيه من الكبوة والسقوط.

والله سبحانه يخاطب رسوله الله الكريم قائلا:

أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوي، وَ وَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدي، وَ وَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْني) (الضحي: 6-8).

ونحن في صلواتنا الخمس نقرأ: إِيّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيّاكَ نَسْتَعِينُ.

وهو نوع من الاستمداد الغيبي.

انواع الإمداد

يد الغيب تتجلّي أحيانا بصورة تهيئة الظروف المناسبة للتوفيق، وأحيانا بصورة هداية وتفتح ويقظة.

لكن الذي ينبغي تأكيده هو أن المساعدات الغيبية لا تأتي عبثاً دونما مقابل.

لا ينبغي أن يجلس الإنسان في بيته مكتوف الأيدي منتظراً يد الغيب لتنقذه، فهذا الانتظار مخالف لناموس الطبيعة والخلقة.

نـذكر آيتين كريمتين إحداهما حول الإمداد الغيبي الذي يتجلّي في تهيئة الظروف المناسـبة للتوفيق، والأخري حول إمداد الهداية المعنوية. لننظر إلي الشروط التي يضعها القرآن الكريم للإمداد الغيبي:

إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (محمد: 7).

فالنصر الالهي – الذي هو إمداد غيبي – مشروط بنصرنا لله. أي أن نبذل ما وسعنا في سبيل الصالح العام لله وفي الله.

فالسعي والجهد ينبغي أن يلازمه الاخلاص وحسن النية أيضا.

وفي الإمداد الثاني يقول جلّ وعلا: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (العنكبوت: 69).

هذه الآية أيضا تشترط الجهد «فينا»، وبعبارة أخري تشترط صرف طاقة جسمية إلي جانب الطاقة الروحية ليستطيع الإنسان في النتيجة أن ينال الهداية والتفتح والانفتاح.

ليس هناك اذن حديث عن إمداد يُنال دونما مقابل.

يتحدث الإمام علي – عليه السلام – عن شروط الإمداد والإسناد الغيبي فيقول:

«ولقد كنا مع رسول الله (ص) نقتل آباءنا وأبناءنا واخواننا وأعمامنا، ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليماً ومضياً علي اللقم وصبراً علي مضض الألم وجداً في جهاد العدو.

ولقد كان الرجل منّا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين، يتخالسان أنفسهما أيهما يسقي صاحبه كأس المنون، فمرة لنا من عدونا، ومرة لعدونا منا.

فلما رأي الله صدقنا أنزل بعدونا الكبتَ وأنزل علينا النصر».

«ولعمري لو كنا نأتي ما أتيتم لما قام للدين عمود ولا اخضرّ للايمان عود». وهذه الآية تطالعنا في سورة الكهف من قوله تعالي:

إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً، وَ رَبَطْنا عَلي قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا (الكهف: 13-14).

وهي تحدثنا عن الهداية، وعن ربط القلب وتقوية الإرادة، وكلاهما مشروطان بعاملين:

الأول: القيام.

والثاني: أن يكون هذا القيام لله وفي سبيل الله.

الذي يبحث عن الحق والحقيقة، ويجهد نفسه في طريق الوصول اليها سوف تمتد اليه يد الغيب لتشمله بعنايتها، وهذه لعمري مسألة تجربية إضافة إلي أنها مسألة إيمانية. لكنها تجربة شخصية، يلزم علي الفرد أن يمارسها في حياته ليلمس آثار اللطف والعناية الربانية وهي تحتضنه.

وما أجملها من لذة..!!

ليس الامر بالصعب. مراحله الأولية بسيطة يستطيع الإنسان أن يطويها من خلال خدمة المجموع ومساعدة الضعيف، والإحسان إلي الوالدين، علي أن يصحب هذه جميعاً الإخلاص وصفاء النية.

عند ذاك سوف تتجلي له اليد الرؤوفة آخذة بناصره، ولعلي أستطيع أن أدعي بأني مارستُ تلكم الشروط، وأحسستُ معها باللذة تحت ظلال رحمة رب العالمين، ولمست تلك العناية بوضوح.

يخطر في ذهني - بهذا الصدد - موقف من مواقف المرحوم آية الله البروجردي - أعلي الله مقامه -.

لقد غادر – رحمه الله – مدينة «بروجرد» إلي «طهران» علي أثر مرض شديد تطلب عملية جراحية.

ثم شد الرحال منها إلي مدينة «قم» حيث اختارها مقاماً علي أثر طلب الحوزة العلمية منه ذلك.

وعند حلول العطلة الصيفية للحوزة في تلك السنة قرر أن يسافر إلي مشهد الرضا – عليه السلام – اذ عُلِمَ بعدها أنه كان قد نذر علي نفسه هذا السفَرَ لله أثناء مرضه رجاء للشفاء.

أعلن سماحته تصميمه هذا في مجلس خاص من العلماء، وطلب إليهم أن يعينوا من يرافقه في سفره هذا. وكان جواب الأصحاب أن طلبوا منه فرصة ليفكروا في الأمر.

ذكر لي أحد العلماء ممن حضر ذلك المجلس قائلا: إننا اجتمعنا علي انفراد وتشاورنا في الأمر، فلم نجد الظرف مناسبا لسفر مثل هذا، في ذلك الوقت. إذ إنه – أعلي الله مقامه – قريب العهد في القدوم إلي مدينة «قم»، ولم يتعرف عليه الشعب الإيراني بعد، وعلي هذا فإن المواطنين سوف لا يقومون بما يناسب منزلته من الحفاوة والتكريم.

كان هذا هو العامل الأول الذي دعانا إلي تثبيط عزيمة السيد علي السفر، ولكنا لم نجرأ علي أن نصارحه بالسبب الحقيقي، بل جعلنا العملية الجراحية التي أجريت له حجة لرفضنا هذه السفرة. وكان أن قلنا جميعاً: إن السفر الطويل بالسيارة (إذ لم يكن خط جوي أو حديدي يربط المدينتين آنذاك) سوف لا تكون نتائجه حسنة علي صحة السيد.

وفي جلسة أخري حيث كرر السيد حديث السفر، سعينا بكل ما وسعنا من جهد لأن نغير وجهة نظره، لكن أحد الحاضرين لم يخف الأمر، بل صرح له بقصدنا من وراء هذه المخالفة.

تغيرت ملامح السيد فجأة، وتحدث بلهجة صارمة روحية قائلا: «منحني الله سبعين سنة من العمر كانت مملوءة بمنح وعطايا لم تكن إحداها من تدبيري وتقديري.. سعيت طوال هذه المدة لأن أتعرف علي وظيفتي في الحياة. والآن وبعد أن تصرمت تلك السنون السبعون، لا ينبغي أن أفكر بأموري الخاصة بنفسي! كلا.. لابد أن أسافر..».

نعم، إن الإنسان، لو قرن السعي بالإخلاص في ممارسته لأعماله الحياتية، سوف يأتيه التسديد من حيث لا يحتسب.

الفرق بين الفكر الإلهي والفكر المادي

إذا نصرتم الحقيقة، فلابد أن تكون الحقيقة سنداً لكم وظهيراً.

وهنا يبدو بوضوح الفرق بين الإنسان الإلهي والإنسان المادي.

ليس ثم تفاوت – في نظر الإنسان المادي – بين طريق الحق والباطل، وبين العدل والظلم. وليس للحق والباطل، ولا للصالح والطالح في ميزان النظام الكلي للعالم حساب ووزن. فالعالم لا يعبأ بهذه الموازين والقيم.

ليس للعالم – في الرؤية المادية – عين ولا أذن ولا عقل ولا إدراك يعي بواسطتها القيم المختلفة ليسند ويؤيد السائرين علي طريق الحقّ، ويخذل المنحرفين عن الطريق السوي المستقيم.

إلاّ أن الإنسان الإلهي يفرق بين الطريقين. فهناك حقيقة تسند دعاة الحق وتأخذ بأيديهم.

ذكرتُ في كتاب «الإنسان والمصير» تحت عنوان «أثر العوامل المعنوية علي المصير»: «إن الرؤية المادية للعالم تذهب إلي أن العوامل المؤثرة علي أجل الإنسان ورزقه وسلامته وسعادته مادية صرفة، فالعوامل المادية وحدها هي التي تتحكم في تقريب أجل الإنسان، وفي ضيق رزقه وسعته، وفي سلامة جسمه، وكذا في ضمان سعادته.

إلا أن الرؤية الإلهية للعالم تذهب إلي أن العوامل الروحية والمعنوية تؤثر – إلي جانب العوامل المادية – في كل ما يعتري الإنسان شراً أم خيراً.

النظرة الالهية تعتبر العالم يقف محايداً تجاه السنن التشريعية والاتجاهات العملية البشرية. أي تري أن السنن الكونية في العالم لا تتحيز لأنصار الحق أو لأنصار الباطل، لأن مفاهيم الحق والباطل، والصحيح والخطأ، والعدل والجور، لها في المنظار الكوني حساب واحد.

لكن المدرسة الإلهية لا تنظر إلي العالم نظرة المحايد في موقفه تجاه أصحاب الحق والباطل.

العالم – في رأي هذه المدرسة – مناصر للسائرين علي طريق الحق والعدالة والاستقامة، ولذوي الأهداف المقدسة.

الإنسان المادي – مهما أوتي حظاً من الإيمان والاعتقاد بمذهبه وطريقه،

ومهما كانت أهدافه وآماله ذات مصلحة عامة ومقدسة وبعيدة عن الذاتية والنفعية – لا يؤمن بأكثر من أنه سوف يتلقي نتائج أعماله بمقدار ما بذله من سعي وجهد لا أكثر.

بينما الفرد المسلم يؤمن ويعتقد أن الموجودات الكونية سوف تهب لحمايته ونصرته، إن ضحّي في سبيل عقيدته وإيمانه، ويؤمن أن الكون ينطوي علي قوي تفوق آلاف المرات تلكم القوي التي يبذلها في الطريق.

الرؤية المادية تؤكد أن دعاة الحق يتلقون من نتائج أعمالهم بنفس القدر الذي يتاح للظالمين أن يكسبوه نتيجة ظلمهم، اذ ليس ثمة فرق في الفهم المادي بين الفريقين، إلا أن الفرق هائل في حساب المدرسة الإلهية».

الإلهام والإشراق

الإلهام أو الإشراق نوع من المدد الغيبي ينفذ إلي كيان العلماء فيفتح لهم أبواباً من العلم تؤدي إلي اكتشافات هائلة.

إن الطرق التي نفهمها للوصول إلي العلم اثنتان، إحداهما: التجربة والمشاهدة العينية، والاخري: القياس والاستدلال.

البشرية تعرفت علي رموز الطبيعة وأسرارها عن طريق الاستقراء والمشاهدة العينية. وتوصلت إلي نتائج مختلفة عن طريق القياس والاستدلال.

هذه المكتسبات طبيعية لأنها النتيجة القطعية اللازمة لمقدمات طواها

ص:89

الإنسان بشكل عملي. غير أن هذه المكتسبات – في المنظار الفلسفي الدقيق ليست منفصلة عن منشأ إلهامي. والي هذا يشير السبزواري في منظومته:

والملهم المبتدع العليم حيّ قديم منّه عظيم

وهذا خارج عن بحثنا. والسؤال الذي ينبغي أن نطرحه هو: هل إن البشرية قد طوت مسيرتها العلمية من خلال هذين الطريقين فحسب، أم إن ثمة طريقاً ثالثاً قد أمدّها توصلت إليه وجَنَته؟

يعتقد العلماء أن هناك طريقاً ثالثاً. ولعل أغلب الاختراعات والاكتشافات الكبري تمت عن هذا الطريق الثالث، وهو نوع من تيار كهربائي قد ينقدح فجأة في نفس العالم وعقله، فيضيء ما حوله، ثم ما يلبث أن ينطفيء.

يعتقد ابن سينا أن هذه القوة موجودة في الافراد بدرجات متفاوتة ومختلفة، ويذهب إلي تفسير الآية الكريمة: يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ. بهذه القوة التي لها وجود شديد مؤثر عند بعض الأفراد.

يذهب الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال» إلي أن اكثر معلومات البشر المرتبطة بالاحتياجات المعاشية انبثقت أولا بشكل إلهامي. وفي بحثه عن الوحي والنبوة يقول: إن مجموعة المعلومات التي يمتلكها البشر عن الأدوية والعلاج وعن النجوم لا يمكن أن تكون مكتسبة عن طريق التجربة، فلا بد أن تكون صادرة عن اللطف الإلهي، بطريق الإلهام، لهداية البشر.

الخواجه نصير الدين الطوسي هو الآخر في بحثه عن الوحي والنبوة يذهب إلي أن معظم ما توصل إليه البشر تمّ عن طريق الإلهام.

لعـل الكثيرين يتصورون أن الإلهـام مسألـة قديمـة ليس لها اليوم أنصار، ويخالون أن الحواس الظاهرة هي مصـدر كل معلوماتنا في عالمنا اليوم عن طريق المشاهدة والتجربة، ولا شيء غير هذه الحواس!!

وليست المسألة كما يتصورون ويخالون.

جمع كبير من العلماء المعاصرين يذهب إلي أن كثيراً من النظريات أوحيت إلي العلماء عن طريق شبيه بالإلهام.

يدافع «الكسيس كارل» في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» عن نظرية الإشراق والإلهام ويقول:

«من المؤكـد أن الاكتشافات العلمية ليست فقط حصـيلة الفكر الإنساني. النوابغ يمتلكون خصائص معينة كالإشـراق والخلاقية، إضافة لما لهم من مطالعـات وتفكير في المسائـل المختلفـة. فعن طريق الإشـراق يـدركون ما خفي عن الآخرين، ويبصـرون الروابط المجهولـة بين القضايا التي يُظن أن لا ارتباط بينها، ويتوصلون إلي فهم المسائل الهامة دونما دليل وبرهان».

ويقول أيضا:

«يمكن تقسـيم العلماء إلي فريقين: منطقيين وإشـراقيين، والعلوم مدينة لهذين الفريقين. وللإشـراق نصيبه في العلوم الرياضية أيضا، مع أنها تستند إلي أساس منطقي كامل. ويحتل الإشراق في الحياة الاعتيادية – كما في

القضايا العلمية – محلاً خطيراً باعتباره عاملاً للفهم والإدراك، ويصعب التمييز أحيانا بينه وبين التوهم...

الرجال العظام والطاهرون يستطيعون، عن طريق الإشراق، التوصل إلي قمة الحياة المعنوية. وهذه الموهبة عجيبة حقاً، وإدراك الواقع دونما دليل وتفكير، غير قابل للتفسير».

يعرض لنا «الكسيس كاريل» ثلة من علماء الرياضيات يدعي أنهم منطقيون اكتسبوا معلوماتهم عن طريق السعي والاستنتاج المنطقي فحسب، ويعرض إلي جانب هؤلاء اسماء عدة من علماء الرياضيات الذين تلقوا علمهم عن طريق الإشراق والإلهام.

هذه النظرية أيدها علماء آخرون. وأخيراً اطلعت علي مقال للعالم الرياضي الفرنسي «جاك هادا مارا» تحت عنوان: «دور العقل الباطن في الادراك العلمي» جاء في ترجمته:

«حينما نفكر بالعوامل التي أدت إلي ظهور الاكتشافات والاختراعات فإننا لا نستطيع إطلاقا أن نتجاهل دور الادراك الفجائي الداخلي.

كل عالم محقق يدرك – إلي حد ما – هذه المسألة، ويعلم أن بعض ما توصل اليه من المسائل العلمية كان نتيجة سلسلة من النشاطات الشعورية، بينما توصل إلي البعض الآخر عن طريق الإلهام الباطني».

العالم الكبير «أنشتاين» كان له نفس هذا الإيمان حول الفرضيات الكبري، وكان يقول أن مبدأ هذه الفرضيات نوع من الإلهام والإشراق.

نتيجة

نفهم من مجموع ما ذُكر أن أنواعاً من الامدادات الغيبية لها وجود في حياة الأفراد، تمنح الفرد أحيانا عزماً وإرادة وربطا علي القلب، وقد تُعِدُّ له الوسائل المادية، أو تبرز هذه الإمدادات بشكل قوة تهدي وتنير.. وتلهم الافكار العلمية.

من هنا نعلم أن الإنسان لم يترك سدي، فاللطف الإلهي والعناية الربانية تشمله في شروط معينة، وتنتشله من الضلالة والضياع والحيرة، وتنجيه في لحظات العجز والخور والضعف. إن هذا شأن الافراد فما شأن المجتمعات؟

الإمداد الغيبي الاجتماعي

هل من الممكن أن تمتد يد العناية إلي مجتمع كي تنتشله من هوته وتساعده في قيامه؟

الأنبياء العظام كإبراهيم وموسي وعيسي ومحمد صلوات الله عليه وعليهم، والمصلحون المعروفون، ظهروا في وقت تحتاج إليهم البشرية أيمّا احتياج.

إنهم كانوا كاليد الغيبية التي امتدت لتنجي البشرية، كان شأنهم كالديمة السمحاء التي تهطل في صحراء قاحلة مجدبة، كانوا مصداق قول الله تعالي: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَي الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (القصص: 5).

ص:93

الإمام علي – عليه السلام – يصف الظروف التي رافقت البعثة النبوية المباركة فيقول:

«أرسله علي حين فترة من الرسل، وطول هجعة من الأمم، وانتقاض من المبرم، وانتشار من الأمور، وتلظ من الحروب، والدنيا كاسفة النور، ظاهرة الغرور، علي حين اصفرار من ورقها وإياس من ثمرها..».

إن ظهور الأنبياء أعقب سقوط البشرية، أو انحدار مجتمع من المجتمعات في هوة سحيقة، فكان أولئك الأنبياء سبباً للانقاذ والنجاة.

القرآن الكريم يخاطب معاصري الدعوة قائلا: وَ كُنْتُمْ عَلي شَ فا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (آل عمران: 103).

يقول المثل الفارسي: «الضياء والصباح نهاية الليل الاسود» وتقول أمثال بعض الشعوب: «الفرج نهاية الشدة» وهذه المقولات تتحدث عن نوع من التجارب البشرية، وتدل علي أن سير الكون ليس عبثياً كما يتصوره الماديون.

مسألة المهدي

مسألة المهدي في الإسلام، لهي مسألة فلسفية كبري.

الإنقاذ المرتقب لا ينحصر في أمة معينة أو منطقة مشخصة أو جنس بالذات، بل إن الانقاذ يمتد ليشمل البشرية جمعاء، وليسير بها نحو مدارج الرقي والصلاح والسعادة.

ص:94

ربما قال قائل: إننا في عصر العلم وتسخير الفضاء، وليس ثم خطر يواجه البشرية كي تكون هناك حاجة إلي إمداد غيبي!! البشرية ترتقي علي سلم الاستقلال والكمال، ويقل احتياجها تدريجيا إلي المعونة والإمداد، فالعقل والعلم يملآن فراغ الحاجة والاستمداد!! كان الخطر يواجه البشرية حينما كانت تغطّ في غياهب الجهل والانحطاط، وليس ثم خطر يواجه مجتمعاً تنور بالعلم والمعرفة!!

إن هذا الجنوح في الخيال – مع الأسفِ – لا أساس له.

إن الخطر الذي يحدق بالبشرية اليوم ليس بأقل مما كان يحيط بمجتمعات العصور السالفة، بل إنه أكثر وأعظم.

من الخطأ أن نعتقد أن الجهل كان وراء انحراف البشرية دائماً. وهذه مسألة شغلت الباحثين في علم التربية والأخلاق.

إن سبب الانحراف هو الغرائز والأهواء المرسلة العنان. هو الشهوة والغضب والحرص علي طلب الشهرة والجاه، والنهم في الاستكثار من اللذة، وحب الذات وعبادتها.

والآن لنلق نظرة علي الغرائز المادية، والأهواء البشرية في عصرنا الراهن، وكذا علي دوافع السيطرة واستثمار الآخرين وعبادة الذات والمنفعة الشخصية، وعلي دوافع الظلم الإنساني.

هل إنها جميعاً هادئة مستقرة في ظل العلم؟

هل إنها مهذبة بروح العدل والتقوي والرضا والعفاف والاستقامة؟!

أم إن المسألة معكوسة تماماً؟!

لم يعد خافياً أن الغرائز البشرية المادية قد جنت اليوم أكثر من أي وقت مضي. وأضحت العلوم والفنون أدوات وآلات لدن تلكم الغرائز.

أضحي ملاك العلم في خدمة شيطان الشهوة، وأصبح العلماء وكل المشتغلين في الحقل العلمي أدوات طيّعة تخدم الساسة والفراعنة وطلاب السيطرة والنفوذ.

ليس هناك من شك في أن التقدم العلمي لم يترك أي أثر إيجابي علي الغرائز البشرية. بل بالعكس فإن هذاالتقدم زاد من غرور الإنسان وطغيانه وهيّج غرائزة الحيوانية، وسعّر لظاها، حتي أضحت العلوم والفنون اليوم أكبر عدو للبشرية، أي إن هذا الصديق الحميم للبشر أصبح عدوا لدوداً له..

لماذا؟!

لأن العلم مصباح، وسيلة إنارة.. الاستفادة منه ترتبط بكيفية استعمال هذا المصباح، والهدف من وراء هذا الاستعمال.

يستطيع الفرد أن يستفيد من المصباح لقراءة كتاب، أو – علي حد قول الشاعر الفارسي سنائي – لانتقاء المتاع الأفضل عند السرقة.

العلم سلّم تستطيع البشرية عن طريقه أن تصل إلي أهدافها، وتحقق غاياتها. وليس العلم بقادر علي تغيير أهداف الإنسان. ولا يستطيع أن يقدم له قِيَماً ومقاييس إنسانية.

هذه وظيفة الدين.. الدين الذي يستطيع أن يتحكم في الغرائز والأهواء الحيوانية، ويحرك في الإنسان الدوافع النبيلة السامية.

ص:96

العلم يستطيع أن يُخضع لسيطرته كل شيء، إلا الإنسان وغرائزه. الإنسان هو الذي يسخّر العلم في الاتجاه الذي يطمح إليه. والدين هو الذي يسخّر الإنسان ويوجهه الوجهة الخاصة.

يقول «ويل ديورانت» في مقدمة كتابه «لذائذ الفلسفة» عن إنسان عصر الآلة: «نحن أصبحنا أغنياء في التكتيك والآلة، إلا أننا فقراء في الهدف.

لم يتغير الإنسان في عصر العلم عن ذاك الإنسان الذي كان يعيش في عصور قد خلت من قبل في كونه أسيراً لقوتي الغضب والشهوة وعبداً لهما.

لم يستطع العلم أن يحرر الإنسان من أهوائه النفسية.. لم يستطيع أن يغيّر روح التجبّر والتفرعن والسفك والغصب في الإنسان...

مع فارق، هو أن روح النفاق والتظاهر قد سادت في عالمنا اليوم، وهيمنت عليه.

وأن يد الأعتداء قد طالت فتجاوزت حدود السيف لتصل إلي مرتبة الصواريخ عابرة القارات، والي قاذفات القنابل».

مستقبل العالم

إننا مسلمون مؤمنون بوجود إله مهيمن علي هذا الكون، وهذا الإيمان هوالذي يقلّل من خطر الكارثة في أعيننا.

كل الأخطار التي تحيط بالإنسانية اليوم لا توحي لنا بالفناء الكامل

لهـذا الكون، لأننا مطمئنون في أعماقنا بأن للبشـرية مسـتقبلاً يمتـد إلي ملايين السـنين. إن هـذا الاطمئنان تبعثه في النفس تعاليم الرسـل والأنبياء، إنه في الواقع إمداد غيبي نستند إليه.

لو أخبرنا بنجم ضـخم يسـير بسرعة في الفضاء، ويقترب تدريجياً من مدار الأرض، وبأنه سيرتطم بالأرض بعد ستة شهور ليحولها إلي كومة رمـاد.. لو قيل لنا هـذا لما تسـرب إلينا الخوف، لأن في أعماقنا نوعاً من الاطمئنان والإيمان بأن الوقت لم يحن لفناء البشـرية التي لم يمض طويلاً علي تفتح براعمها.

وكما أننا لا نؤمن بأن أرضنا ستفني بفعل سقوط نجم أو كوكب، كذلك لا نصدق مقولة فناء الأرض بيد القوي البشرية المخربة.

والآخرون..؟ هل إنهم لا يصدقون أيضا؟

هل هم متفائلون أيضا بمستقبل الأرض والإنسان والحياة والمدنية والسعادة والعدالة والحرية؟!

كلا...

إننا نلاحظ باستمرار علامات الخوف والتشاؤم في خطب وأحاديث ساسة العالم بالنسبة إلي مستقبل البشرية والحضارة.

ولو أهملنا تعاليم الـدين وإيماننا بالإمـداد الغيبي، ولاحظنا المسألـة علي أساس العلل والأسـباب الظاهرية، لوافقناهم في التشاؤم، وجعلنا الحق في جانبهم.

لماذا لا يتشاءمون؟!

أيّ تفاؤل في دنيا يقرر مصيرها ضغط زرّ يؤدي إلي انطلاق وسائل الدمار والتخريب؟!

أي تفاؤل في عالم يرقد علي كتل عظيمة من البارود تنتظر الشرارة كي تتحول إلي حريق عالمي؟!

يقول «رسل» في كتابه «الآمال الجديدة»:

«إن الإحساس بالحيرة والضعف وعدم القدرة يسود في عصرنا الحاضر.

نري أنفسنا نقتربُ من حرب لا نريدها جميعاً، حرب سوف تفني معظم البشر. ومع هذا فإننا كأرنب قد لاقي حية فمكث في مكانه، ننظر من طرف خفي إلي الخطر المحدق بنا دون أن ندري ما نعمل!!

أحاديث القنبلـة الذرية والهدروجينية المخوفة المخربة تنتشـر في كل مكان، ونتناقل فيما بيننا أخبار الجيش الروسـي ((1)) وأخبار القحط والتكالب والوحشية.

في الوقت الذي نقف فيه نحن أمام هذه المظاهر مذهولين مذعورين، فاننا لم نعد قادرين علي اتخاذ موقف حازم من هذه المأساة».

وهل البشر قادرون علي اتخاذ مثل هذا الموقف؟!

1- (1) - علّق الأستاذ الشهيد علي هذه العبارة بقوله: إن كتاب «الآمال الجديدة» قد كُتب يوم كان الغرب مرعوباً من الروس. أما الآن فقد برزت الصـين لترعب المعسـكرين كليهما.. انتهي تعليق الاسـتاذ مطهري. ونقول إن العالم يواجه اليوم أكبر خطر في تاريخ البشرية يتمثل بانفراد أمريكا بالهيمنة العالمية، إذ تندفع ببطش تخريبي هائل علي خلفية أهداف صهيونية وأوهام توراتية وحروب صليبية (المترجم).

هو يقول أيضا: «إن مدة ظهور الإنسان طويلة بالنسبة إلي عصر التاريخ، لكنها قصيرة بالنسبة إلي العصور الجيولوجية.

يقال إن الإنسان قـد ظهر إلي الوجود قبل مليون سـنة، ويذهب البعض ومنهم انشـتاين إلي أن الإنسان قد اجتاز فترته الحياتية، وسيسـتطيع خلال سنين معدودة، بمعونة تقدمه العلمي الهائل، أن يفني نفسه».

لو حكمنا علي الأمور من خلال الأسـباب والظواهر المادية لما حكمنا عليها حقاً بغير هذا النوع من التشاؤم. وهذه النظرة السلبية لا يمكن أن تتبـدل إلي نظرة ايجابيـة متفائلـة إلاـ عن طريق ايمان روحي، إيمان بأن الإنسانيـة تنتظر في مسـتقبل أيامها حياة الرفاه والسـعادة والأمن والعدل.

لو أننا قبلنا صورة التشاؤم القاتمة، فإن حياة الإنسانية سـتكون مضـحكة حقاً.. إنها تشبه حياة ذلك الطفل الذي ما إن استطاع حمل السكين حتي أسرع الي الانتحار بغرس السكين في بطنه.

يقال: إن عمر الأرض أربعون مليار سنة، وإن عمر الإنسان علي هذا الكوكب يقرب من مليون سنة.

ويقال أيضا: لو افترضـنا أن عمر الأرض سـنة واحدة، فإن ثمانية أشـهر مضت من هذه السـنة دون أن يوجد علي ظهر الأرض أي أثر للحياة. وفي حـدود الشـهر التاسع بـدأ ظهور الحياة بشـكل فايروسات ذات خليـة واحدة. في الأسـبوع الثاني من الشـهر الأخير ظهرت الحيوانات اللبنية، وفي الربع الاخير من الساعة الأخيرة لهذه السنة ظهر الإنسان.

ص:100

والفترة التي خرج فيها الإنسان من حياته المتوحشة وحياة الغابات والكهوف هي آخر ستين ثانية من هذه السنة، وفي هذه الثواني الستين ظهر استعداد الإنسان في الاستفادة من عقله في تسخير مظاهر الطبيعة، وفي بناء حضارته ومدنيته. وفي هذه الثواني الستين أثبت الإنسان جدارته بتحمل أعباء خلافة الله في الأرض.

ولو قيل الآن إن الإنسان بمهارته العلمية الفائقة سيفني نفسه عاجلاً، ولم يتبق من زواله سوي بضع أقدام من مسيرته. لو قيل هذا، فإنه لا يعني سوي أن مسألة خلق الإنسان ليست إلا عبثاً لا معني لها.

نعم، إن نفراً من الماديين يستطيع أن يزعم هذا، لكن الفرد الذي تربي في المدرسة الإلهية لا يمكن له أن يفكر هذا التفكير.. إنه يقول: لا يمكن للعالم أن يفني بيد نفر من المجانين. إنه يؤمن بالخطر المحدق بالعالم، ولكنه يؤمن أيضا بأن تجربة الإنقاذ التي تفضّل بها الله علي البشرية سوف تتكرر، وسوف تمتد يد الغيب لتبعث المنجي والمصلح كما فعلت من قبل.

الإنسان الإلهي يري: أن العالم لم يُخلق عبثاً، ويسخر من مقولة الماديين حول فناء الإنسان التي يصدق عليها المثل العربي: «ما أدري أسلّم أم ودّع».

فناء البشرية في عصرنا الراهن مخالف لحكمة الله:

إذ مقتضي الحكمة والعناية إيصال كل ممكن لغاية

كلا.. إن عمر الأرض لم ينته بعد، إنه في أول مراحله.

ص:101

البشرية تنتظر دولة عالمية قائمة علي أساس العدل والخير والسعادة والأمن والرفاه.

سوف يصل اليوم الموعود وتشرق الأرض بنور ربها وسيكون ذلك:

«إذا قام القائم، وحكم بالعدل، وارتفع في أيامه الجور، وأمنت به السبل، وأخرجت الأرض بركاتها، ولا يجد الرجل منكم يومئذ موضعاً لصدقته ولا برّه، وهو قوله تعالي: والعاقبة للمتقين».

بدل أن نكون سلبيين متشائمين، بدل أن نجلس لنعد الأيام المتبقية من عمر البشرية، بدل كل هذا، علينا أن نتطلع إلي إطلالة فجر النور من وراء كل الخطوب، فالشرارة لا تنير إلا في الظلمة.

يشير الإمام علي إلي ظهور المهدي فيقول: «حتي تقوم الحرب بكم علي ساق بادياً نواجذها ((1))، مملوءة أخلافها ((2))، حلواً رضاعها ((3))، علقماً عاقبتها ((4)).

ألا وفي غد وسيأتي غد بمالا تعرفون يأخذ الوالي من غيرها عمالها علي مساويء أعمالها ((5))، وتخرج الأرض، أفاليذ كبدها ((6))، وتلقي

1- (1) - النواجذ: أقصي الأضراس أو الانياب، كناية عن شدة احتدام الحرب.

2- (2) - الأخلاف، جمع خلف: الضرع، كناية عن غزارة مافيها من الشر.

3- (3) - حلواً رضاعها: للمظلومين والمستضعفين.

4- (4) - علقماً عاقبتها: للظالمين.

5- (5) - اذا انتهت الحرب حاسب الوالي القائم، كلّ عامل من عمال السوء علي مساوئ أعمالمهم، وإنما كان القائم من غيرها لأنه بريء من جرمها.

6- (6) - أفاليذ جمع أفلاذ جمع فلذة: وهي القطعة من الذهب والفضة.

اليه سلماً مقاليدها، فيريكم كيف عدل السيرة ويحيي ميت الكتاب والسنة».

الإمام علي يتطلع إلي غد عبوس مكفهر، ولكنه يبشر بطلوع فجر النصر من وراء كل تلكم الظلمات.

والقرآن الكريم يقول: وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُونَ (الانبياء: 105).

نعم.. هذه هي الفلسفة العظمي في مسألة ظهور المهدي.

إنها، وإن كانت تنذر بأزمات عظام.. لكنها تبشر بالسعادة وانتصار الحق والعدالة بعد هذه الأزمات.

وهذا هو أمل الإنسانية الكبيرة..

أللهم إنا نرغَبُ إليك في دولة كريمة تُعزّ بها الإسلام وأهله.. وتذلُّ بها النفاق وأهله.. وتجعلنا فيها من الدعاة إلي طاعتك والقادة إلي سبيلك.. وتزرقنا بها كرامة الدنيا والآخرة».

ص:103

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: 9

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم 129، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 88318722 ـ 021

قسم البيع 09132000109شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز القائمية للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹